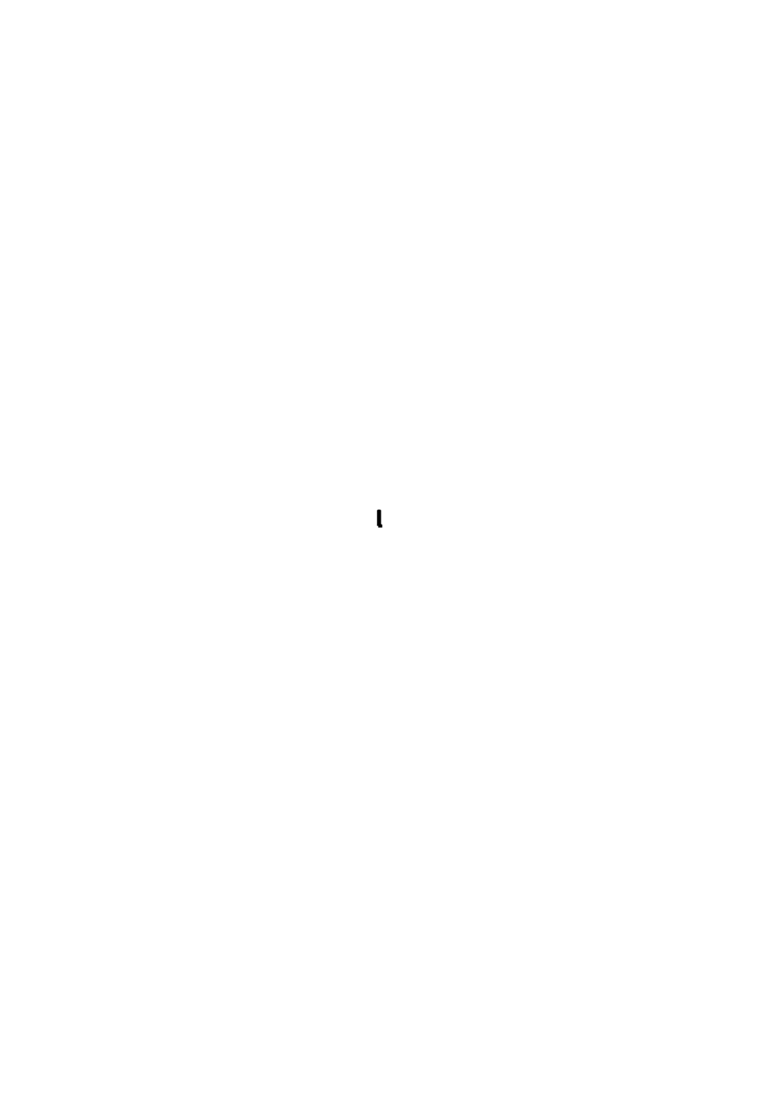






لجنة ترجمة
دائرة المعارف الاسلامية

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

الدكتور
طه حسين





أخى العزيز

وددت لو أسميك ولكنك تعلم لماذا لا أسميك وحسب الذين ينظرون فى هذا الكتاب أن يعلموا أنك كنت أول المعزين لى حين أخرجنى الجور من الجامعة وأول المهنئين لى حين ردنى العدل إليها . وكنت بين ذلك أصدق الناس [illegible] فى السر والجهر وأحسنهم عندى بلاء فى الشدة واللين .

فتقبل منى هذا العمل الضئيل تحية خالصة صادقة لإخائك الصادق الخالص .

طه حسين

— ١ —

زعموا أن من أظهر خصائص الأديب حرصه على أن يصل بين نفسه وبين الناس. فهو لا يحس شيئا إلا أذاعه، ولا يشعر بشيء إلا أعانه، وهو إذا نظر فى كتاب أو خرج للتروض، أو تحدث إلى الناس فأثار شيء من هذا فى نفسه خاطراً من الخواطر، أو بعث فى قلبه عاطفة من العواطف أو حث عقله على الروية والتفكير، لم يسترح ولم يطمئن حتى يقيد هذا الرأى، أو تلك العاطفة، أو ذلك الخاطر فى دفتر من الدفاتر، أو على قطعة من القرطاس.

ذلك لأنه مريض بهذه العلة التى يسمونها الأدب، فهو لا يحس لنفسه، وإنما يحس للناس. وهو لا يشعر لنفسه وإنما يشعر للناس، وهو لا يفكر لنفسه وإنما يفكر للناس. وهو بعبارة واضحة، لا يعيش لنفسه وإنما يعيش للناس. وهو حين يأتى من الأمر هذا كله يخادع نفسه أشد الخداع ويضللها

اقبح التضليل . فيزعم أنه مؤثر لا يريد أن يستمتع وحده بنعمة الإحساس والشعور والتفكير . وإنما يريد أن يشرك الناس فى هذا الخير الذى تنتجه طبيعته الدقيقة الخصبة الغنية، فاذا كان متواضعا . معتدل الرأى فى نفسه فهو شقى تعس محزون ، يحب أن يعلن الى الناس ما يجد من شقاء وتعس وحزن . لعلهم يرثون له أو يرأفون به أو يشفقون عليه . وربما لم ير فى نفسه إيثارا . ولم يحسس أنه شقى وإنما آثر نفسه بالخير ، وأحبها قليلا أو كثيرا فهو يسجل مايحس وما يشعر وما يفكر يحفظه من الضياع ، وليستطيع العودة إليه من حين الى حين كلما خطر له أن يستعرض حياته الماضية، وكثيرا ما تعرض له الفرص التى تحمله على أن يستعرض حياته الماضية . والذاكرة قصيرة ضعيفة. فلم لا يسجل خواطره وعواطفه وآراءه التى يتكون منها تاريخه الفردى الخاص ليعود إليه كلما دعاه إلى ذلك جد الحياة أو هزلها ؟ وما أكثر مايدعو جد الحياة وهزلها إلى أن يستعرض الإنسان حياته الماضية وما اختلف عليه فيها من الأحداث .

يخدع الأديب نفسه هذه الضروب من الخداع، ويعللها بهذه الألوان من التعلات. وحقيقة الأمر أنه يكتب لأنه أديب، لا يستطيع أن يعيش إلا اذا كتب، يكتب لأنه محتاج إلى الكتابة كما يأكل ويشرب ويدخن لأنه محتاج الى الطعام والشراب والتدخين. وهو حين يكتب قلما يفكر فيما يحسن أن يكتب. وما ينبغي ألا يعرفه القرطاس أو يجرى به القلم، كما أنه حين يأكل ويشرب ويدخن قلما يفكر فيما يلائم صحته وطبيعته ومزاجه من ألوان الطعام والشراب وأصناف التبغ، إنما هى حاجة تضطره الى الحركة. فيتحرك، وتدفعه الى العمل فيعمل. فأما عواقب هذه الحركة ونتائج هذا العمل فأشياء قد يتاح الوقت للتفكير فيها فى يوم من الأيام حين تصبح أمراً مقضياً لا منصرف عنه ولا سبيل الى التخلص منه.

اذا كان هذا كله صحيحا، وأكبر الظن أنه صحيح. فيجب أن يكون صاحبي الذى أريد أن أتحدث إليك عنه أديبا. فلست أعرف من الناس الذين لقيتهم وتحدثت اليهم رجلا أضنته علة الأدب، واستأثرت بقلبه ولبه ونفسه كصاحبي هذا. كان

لا يحس شيئا ، ولا يشعر بشيء ، ولا يقرأ شيئا ، ولا يرى شيئا ولا يسمع شيئا إلا فكر في الصورة الكلامية ، أو بعبارة أدق في الصورة الأدبية التي يظهر فيها ما أحس ، وما شعر وما قرأ وما رأى وما سمع . وكان يجد مشقة شديدة في إخفاء تفكيره هذا عن الناس . فكثيراً ما كان يقول لأصحابه إذا رأى شيئاً أسخطه أو أرضاه : ما أخلق هذا الشيء أن ينشيء صورة أدبية ممتعة للسخط أو الرضا. وكان يقضي نهاره في السعي والعمل والحديث حتى إذا انقضى النهار ، وتقدم الليل وفرغ من أهله ومن النـــــاس وخلا الى نفسه ، أسرع الى قلمه وقرطاسه وأخذ يكتب ويكتب ويكتب حتى يبلغ منه الإعياء وتضطرب يده على القرطاس بما لا يعلم ولا يفهم . وتختلط حروف أمام عينيه الزائغتين . ويأخذه دوار ، فاذا القلم قد سقط من يده ، واذا هو مضطر الى أن يأوى الى مضجعه ليستريح . ولم يكن نومه بأهدأ من يقظته ، فقد كان يكتب نائماً كما كان يكتب يقظاً . وما كانت أحلامه في الليل إلا فصولاً ومقالات ، وخطباً ومحاضرات . ينمق هذه ، ويدبج

تلك ، كما كان يفعل حين كانت تجتمع له قواه العاملة كلها . وكثيرا ما كان يحدث أصدقاءه بأطراف غريبة قيمة من هذه الفصول والمقالات التي كانت تمليها عليه أحلامه فيجدون فيها لذة ومتاعا .

وكثيرا ما كان يقرأ عليهم فصولا من النثر ومقطوعات من الشعر أملتها عليه يقظته ، وسجلتها يده حين كان يخلو الى نفسه بعد أن يكون قد ملأ عينيه وأذنيه وحسه وشعوره وقلبه وعقله بما يحيط به من الأشياء وبما يحسه من الناس ومن الحياة .

وكان أصدقاؤه اذا سمعوا منه هواجس الأحلام أو خواطر اليقظة ألحوا عليه في أن يذيع ذلك وينشره فيبتسم ثم يهزأ ، ثم يتمنع عليهم ويلح في الامتناع لأنه كان يؤمن بأن ما يكتبه لم يصل بعد الى أن يكون خليقا بأن يقدم الى المطبعة فهو كان يخاف المطبعة ويكبرها ويحيطها بشيء من التقديس غريب ، وكان يتحدث بأن ما يقدم الى المطبعة من الآثار المكتوبة أشبه شيء بما كان يقدمه الوثنيون "قدماء الى آلهتهم

من الضحية و القربان . وبما يتقدم به الآن المؤمنون المترفون الى آلهتهم من الصلاة والدعاء . فمن الحق أن تصطفى الضحية وأن يتخير القربان وأن تكون الصلاة قطعة من النفس وأن يكون الدعاء صورة للقلب والعقل جميعا .

وكان صاحبنا يرى أن ليس فيما كتب ضحية تصطفى ولا قربان يختار . وأنه لم يوفق بعد الى أن يودع القرطاس قطعة من نفسه . أو يسطر عليه صورة قلبه وعقله . فما زالت الأبعاد بينه وبين المطبعة بعيدة . وما زالت الأستار والسجف دونه مسدلة .

فيكتب إذ لنفسه لا للمطبعة فاذا ضاق بنفسه وبما تملى فليضطر أصدقاءه على شيء منه وايرض هذه الحاجة القوية التي تحسها جميعا إلى أن نشرك الناس فيما نجد من حس أو شعور . والحق أن صاحبي لم يكن يقدم على هذا إلا كارها مضطرا حين لا يجد بدا من الإقدام ، أو حين يسأله أصدقاؤه عما أحدث بعدهم . وكان حياؤه يمنعه من إظهار عقله وقلبه، كما يمنعه من عرض جسمه عاريا على الناس . ولكن

أصدقاءه لم يكونوا فى حاجة الى أن يروا شخصه عاريا، وكانت حاجتهم شديدة الى أن يروا نفسه كما هى، لأنها كانت جميلة خلابة تروعهم حينا، وتثير فى نفوسهم الحب والمودة دائما.

كان قبيح الشكل نائى الصورة تقتحمه العين ولا تكاد تثبت فيه، وكان الى القصر أقرب منه الى الطول. وكان على قصره عريضا ضخم الأطراف مرتبكها كأنما سوى على عجل. فزادت بعض أطرافه حيث كان يجب أن تنقص، ونقصت حيث كان يحسن أن تزيد. وكان وجهه جهما غليظا يخيل الى من رآه أن فى خديه ورما فاحشا وكان له على ذلك أنف دقيق مسرف فى الدقة، منبطح غال فى الانبطاح، قد اتصل بجبهة دقيقة ضيقة لا يكاد يبين عنها شعره الغزير الجعد الفاحم.

لم تكن قد تقدمت به السن بل لم يكن جاوز الثلاثين، ولكن علامات الكبر كانت بادية على وجهه وقده لا يخدع عنها أحد. كان على قصره مقوس الظهر اذا قام، منحنيا اذا جلس، ولعل إدمانه على الكتابة والقراءة، وإسرافه فى

الإنحناء على الكتاب أو القرطاس هما اللذان شوها قده هذا التشويه. وقلما كان وجهه يستقيم أمامه، إنما كان منحرف العنق دائما الى اليمين أو الى الشمال. وقلما كانت عيناه الصغيرتان تستقران بين جفونه الضيقة، إنما كانتا مضطربتين دائما لا تكادان تستقران على شيء حتى تدعاه مصعدتين فى السماء، أو تنحرفا عنه الى ما يليه من إحدى نواحيه

ولم يكن صوته عذبا ولا مقبولا، وإنما كان غليظا فجا، ولكنه مع ذلك لم يكن يخلو من نبرات حلوة تجرى عليه اذا قرأ شيئاً فيه تأثر وانفعال. وكان له ضحك غليظ مخيف يسمع من بعيد. بل كان كل ما يصدر عن صوته غليظا مخيفا. يسمع من بعيد، ولم يكن للنجوى معه سبيل. وكثيرا ما ضايقه ذلك حين كان فى باريس. وكثيرا ما حمل ذلك الناس عامة، واصدقاءه خاصة، على أن يضيقوا به ويجتنبوه اذا لقوه فى قهوة أو نادٍ أو ملعب من ملاعب التمثيل.

وهو على رغم هذا كله كان أحب الناس الى، وأكرمهم على، وآثرهم عندى. وأحسنهم مساكا الى نفسى، ومنزلا من

قلبي . كان يزورني فأنصرف اليه عن كل شيء وأقضي معه الساعات ، فاذا تركني خيل الى أني لم أقض معه الا اللحظات القصار . وكنت اذا أعياني الدرس واحتجت الى الرياضة أو الراحة آثرت زيارته والتحدث اليه والاستماع له على كل ما كانت تقدمه الى القاهرة أو باريس من أنواع الرياضة والراحة

— ٢ —

فقد عرفته في القاهرة قبل أن يذهب إلى باريس ، ثم أدركته الى باريس بعد أن سبقني اليها . عرفته مصادفة وكرهته كرها شديدا حين لقيته لأول مرة ، كنا في الجامعة المصرية القديمة في الأسبوع الأول لافتتاحها وكنت أختلف الى ما كان يلقى فيها من المحاضرات ، حريصا عليها مشغوفا بها معتزما أن لا أضيع حرفا مما يقول المحاضرون . وكان مجلسي دنيا دانيا قريبا من الأستاذ . فإني لمصغ ذات ليلة الى الأستاذ واذا بصوت من ورائي ينطلق بالحديث هادئا . ولكنه على هدوئه يغمر أذني جميعا . ويكاد يخفي علي صوت الأستاذ فأجد في التخلص منه فلا أفلح ، وأضيق بهذا الصوت ويضيق

به صاحباى اللذان يكتنفانى .

فنلتفت الى صاحب الصوت نطلب اليه الصمت فلا يسكت إلا ريثما يستأنف الحديث ، ونراجعه مرة أخرى فلا يحفل بنا ، فنشكوه الى الأستاذ فيضطره الأستاذ الى الصمت . حتى اذا انتهت المحاضرة وخرجنا من غرفة الدرس رأيناه قد وقف لنا ينتظرنا ، فيعرض لنا فى غلظة ، فاذا زعمنا له أن من حقنا أن نسمع الأستاذ ، وأن ليس له أن يصرفنا عنه ، قهقه قهقهة مخيفة . وقال فى صوت ما نشك أن الأستاذ قد سمعه : « وماذا تريدون أن تسمعوا ؟ ولكنكم معذورون ، جئتم من الأزهر ، فكل شىء عندكم قيم ، وكل شىء عندكم جديد . »

واجتهدنا بعد ذلك فى أن نجتنب مكانه من غرفة المحاضرات وأن نختار لأنفسنا مجلسا بعيدا منه أقصى غاية البعد . تركناه ولكنه لم يتركنا . وكأنما عمائمنا كانت تغريه بنا وتحرضه علينا . فلم نكن نخرج من محاضرة حتى يعرض لنا ويأخذ بجبتى أو قفطانى وهو يسألنى « أأعجبتك المحاضرة ؟ » فان قلت « نعم » قال : وماذا أعجبك منها ؟ وهل فهمتها على وجهها ؟

وكان يقول لى : هون عليك من هذا الحرص على المحاضرات ولا تتهالك عليها هذا التهالك ، فهى أقل غناء مما تظن وخير لك أن تقرأ من أن تسمع .

فلما ألح على فى ذلك سألته : واذا كنت ترى هذا الرأى فما اختلافك الى الجامعة ؟ وما استماعك للمحاضرات وما تهويشك علينا بصوتك العالى وحديثك الذى لا ينقطع ؟ فضحك وقال : الجامعة شىء جديد أحب أن أراه ، وقد سئمت القهوة . ولو لم يكن فى الجامعة إلا أنت وأصحابك هؤلاء الذين تنفتح عقولهم للعلم الحديث فيتلقون ما يسمعون فى كلف ونهم مصدرهما الجهل العميق ، لكان هذا كافيا لأن اختلف الى الجامعة واستمع للمحاضرات . ثم سألنى ذات يوم : أين تقيم ؟ أجبته : أقيم فى حى كذا . قال : ومع من تقيم ؟ قلت : مع جماعة من الأهل والأصدقاء كلهم يطلب العلم فى الأزهر أو فى المدارس المدنية . قال : إن منزلك بعيد وليست بيئتك بالتى تحب . فأنا لا أحب مجالس الطلبة ، وأنا مع ذلك حريص على أن أجلس معك وأتحدث اليك فأطيل الحديث ،

بل انا حريص على أن أقرأ معك بعض الكتب ، فلا بد إذا من أن نلتقي،ومن أن نلتقي في نظام واطراد . فليكن ذلك عندي، ولك علي أن أردك الى أهلك وأصدقائك قبل أن يتقدم الليل، دون أن تجد في ذلك مشقة أو تحتمل فيه عناء .

وكان يقول هذا بصوته الغليظ العريض في لهجة الحازم الواثق بأن أمره سيطاع . وقد هممت أن أرد عليه معتذرا ، وما كان أكثر المعاذير !

فلم أكن أستطيع أن أسهر ولا أتعرف الى أحد دون إذن من أخي . وكان علي أن أغدو مع الفجر الى درس الأصول . ولم يكن بد من أن أستعد لهذا الدرس وغيره من دروس الأزهر ، وأن أعوض هذا الوقت الذي أضيعه كل مساء في الجامعة على كره من أخي في القاهرة،وأسرتي في الريف.

هممت أن أعتذر ولكنه لم يمهلني ولم يتح لي أن أقول حرفا ، وإنما استوقف عربة ودفعني فيها دفعا ، وأمر خادمي الأسود الصغير أن يجلس الى جانب السائق ، وجلس هو الى جانبي وقال للسائق بصوته الغليظ العريض : الى القلعة .

وكنت أسكن فى أقصى الجمالية . فلما أخذت أقدر بعد الأمد بين داره وداري ، وهممت أن أتكلم ، وضع يده على كتفى وقال : ألم أقل لك إنى سأردك الى حيث تقيم ؟!

— ٣ —

وقطعت بنا العربة أحياء مختلفة ، ومضت بنا فى أجواء متباينة . وكنت أحس اختلاف الأحياء ، وتباين الأجواء فيما يصل الى من أصوات الناس وحركاتهم ومن اضطراب الأشياء من حولنا . كما كنت أحس ذلك فى سير العربة نفسها وفى لهجة السائق وهو يدفع الناس أمامه ويطلب اليهم أن يتنحوا له عن الطريق أو أن يجنبوا أنفسهم خيله وعربته .

كان الحى رشيقا أنيقا ، وكان الجو سمحاً طلقا . وكانت الحركات والأصوات من حولى لا تخلو من شدة وعنف ، ولكن فيها ظرفا وتأنقا ، حتى إذا بلغنا شارع محمد على ضاقت الطريق ، واشتد أمامنا الزحام ، وكثر من حولنا الصياح ، وأخذت أصوات الأطفال ونساء الشعب تختلط بأصوات الرجال من العمال وسائقى عربات النقل ، وانتشرت فى الجو

روائح ثقيلة، تمتاز منها روائح البصل والثوم وقد أخذت تعمل فيهما النار . وارتفع صوت السائق واتصل ، وكثر نذيره وتحذيره ، وكثر حوله لوم الناس له وتأنيبهم إياه ، وتردد فى الهواء هذا الصوت المعروف الذى يحدثه السائقون بأسواطهم حين يأتون بها ، هذه الحركة التى يردعون بها الخيل وينبهون بها المارة : ثم تنفسح الطريق وتتسع ويصفو الجو ، ويخف الهواء ، وتهدأ الحركة . ويتنفس السائق مطمئنا ، وتمشى الخيل رفيقة ، ولكن ذلك لا يطول إلا ريثما تنعطف العربة ذات اليمين ، وإذا نحن فى حارة ضيقة هادئة قد ثقل فيها الهواء وفسد فيها الجو ، وكثرت فى أرضها الأخاديد . فالعربة تقفز بنا قفزا . والسائق يهز سوطه فى الهواء ، ويحذر وينذر فى هدوء ورضى ، ويدعو ذلك بعض النوافذ الى أن تفتح ، ويثير ذلك بعض الصبيان فيخرجون من بيوتهم أو من أوكارهم يعبثون بالسائق . ومنهم من يتعلق بالعربة ثم ينصرف عنها ، ونحن نضحك من هذا كله ، ونضحك من السائق خاصة وهو ينظر أمامه ويلتفت وراءه ويضرب الهواء بسوطه ، ويطلق لسانه

ألفاظ ترق حتى تبلغ المداعبة الحلوة ، وتغلظ حتى تصل الى أشنع القبيح ، وكل ذلك يصل الى نفسي فيحدث فيها آثارا مختلفة ، ولكنها على اختلافها تتفق في شيء واحد هو الطرافة لأني لم أكن تعودت ركوب العربات ، ثم يقف السائق فجأة وننزل من العربة وإذا صاحبي يقول لي : لم نبلغ البيت بعد . ولكننا انتهينا الى حيث لا تستطيع العربة أن تمضي ، فهل تعودت التصعيد والرقي في الجبل ، فأنا لا أحب أن أسكن في السهل المنبطح فأكون كغيري من الناس . وإنما أحب أن أشرف على القاهرة . وأن أخيل الى نفسي أني لست منغمسا فيها وأني أدخلها اذا غدوت الى عملي مع الصبح وأخرج منها اذا رحت الى بيتي مع الليل . ولست أخفي عليك أني أجد لذة قوية حين أدخل المدينة مع النهار هابطا اليها من هذه الربوة كأني أغزوها وأسقط عليها سقوط النسر على فريسته ، وأجد لذة أخرى ليست أقل من تلك اللذة قوة حين أمضي النهار كله في المدينة مضطربا مع الناس فيما يضطربون فيه من عمل ، خائضا مع الناس فيما يخوضون فيه من حديث ، مشاركا للناس فيما

يأتون من خير وشر ، نافعـا ضارا منتفعا محتملا للضرر ، حتى اذا كان المسـاء ضقت بهم وضاقوا بى وأويت الى جامعتكم هذه الجديدة أريح نفسى بما أسمع من كلام فيه الممتع وفيه السخيف ، ولـكنه على كل حال ليس بذى غناء ، حتى اذا أخذت بحظى من هذه الراحة الأولى ، رحت الى بيتى ، فلا تسل عن هـــذا الشعور العـذب الذى يغمر قلبى شيئا فشيئا كلما دنوت من هذا المكان . أحس كأنى أنسل من المدينة وأتخفف من أثقالها وألقى آثامها من ورائى وأطهر جسمى ونفسى من أوضارها وأدرانها ، حتى اذا رقيت هذه الربوة وبلغت قمتها هذه — وكنت قد أحسست الجهد من التصعيد فى طريق عالية ملتوية — وقفت وقفة من كان فى مكروه فخلص منه . وأرسلت زفرة يخيـل الىّ أنها تحمل بقية ما علق بنفسى من شر المدينـــة ، ثم تنفست ملء رئتى مرة ومرة . ثم أقبلت هادئا مطمئنا قصير الخطى الى هذا الباب . وهنا وقف ودق الباب دقتين ففتح لنـــا ثم أغلق من دوننا .

وانعطف بنا الى اليمين فمشينا خطوات، ثم انتهى بنا الى دهليز، فرقينا درجات، وخادم صبية تسعى بين أيدينا وقد حملت فى يدها اللطيفة سراجا صغيرا يضطرب منه ضوء ضئيل، حتى اذا بلغنا أعلى السلم وقف يبحث فى جيبه عن بعض الشىء، ثم أخرج مفتاحا فأداره فى قفل أمامه حتى اذا فتح له الباب صاح صيحة عريضة أن اخلع نعليك فقد بلغت الغرفة الحرام.

ولم أكد أسمع هذه الجملة حتى انحنيت الى حذائى أريد أن أخلعه حقا، وأى غرابة فى ذلك فقد تعودت خلع الحذاء مرات فى كل يوم، حين كنت أختلف الى الدروس فى الأزهر أو فى جامع محمد بك، أو فى جامع العدوى، أو فى جامع الأشرف. هناك حيث كنت أستمع لدروس الأصول والفقه والنحو والمنطق والتوحيد وتعودت خلع الحذاء حين كنت أزور بعض الدور، ولا سيما دور شيوخنا من العلماء ولا سيما هذا الشيخ الذى كان الخديو قد نفاه من الأزهر

نفيا وحظر عليه التعليم فيه . فتبعناه الى داره والححنا عليه فى أن يمضى فى القاء ما كان يلقى علينا من الدروس، لاحبا فى علمه، ولا تهالكا على شخصه ، ولكن تحديا لذلك السلطان الذى كنا نراه جائرا متحكما ، ولا نريد أن نذعن لجوره ولا لتحكمه ، وآية ذلك أننا نشرنا فى الصحف خبر إلحاحنا على الأستاذ ، واستجابة الأستاذ لنا ، واختلافنا الى داره فى الضحى من كل يوم نسمع منه الأصول فى بعض الأيام ، والمنطق فى بعضها الآخر .

هنالك فى الدرب الأحمر كنا نبلغ الدار مختلفين ، فبعضنا يتخذ أحذية الشيوخ ، وبعضنا يتخذ أحذية الأفندية، وكلنا كان يخلع حذاءه ، إذا بلغ المنظرة ، فلم أجد اذن غرابة فى أن يطلب الىّ صاحبى أن أخلع نعلى حين بلغنا غرفته هذه فلعل ما كان يغطى أرضها من بساط أو حصير كانت تقام عليه الصلاة كما كانت تقام على ما يغطى أرض المساجد وأرض منظرة الشيخ من بساط أو حصير . ولكنى لم أكد انحنى على حذائى لأخلعه حتى امتلأ الجو حولى بضحك

عريض رائع مخيف ، ثم امتـــدت الىّ يد صاحبي الغليظة فردتني الى اعتـدال القامة ، وصاحبي يقول ، ماذا تفعـل أفتظن أنك فى الأزهر ؟ أو هذا كل ما علمته من البيان ؟ قلت فى شيء من الدهش عظيم وأى غرابة فى أن تخلع النعال عند أبواب الغرف . وأين يكون البيان وأبوابه من خلع النعال ؟ قال يا سيدى إنهم يدرسون لـكم فى الأزهر التشبيه والاستعارة والمجاز والـكناية وما أشك فى أنك تستطيع أن تعيد على كل ما سمعته من هذا . ولكنك تملأ صدرك بما لا تفهم ولا تحسن الانتفاع به . فانى لم أرد أن تخلع نعليك وإنما أردت أن تـكبر هذه الغرفة التى بلغتهـا والتى ستدخلها لأنها غرفة العـلم والأدب . ومستقر الاسفار والكتب . ومهبط الوحى ان كان ما يقع فى نفس رجل مثلى يريد أن يكون أديبا شيئا يمكن أن يسـمى وحيا فهو أنك تدرس علم البيان درس فهم وانتفاع حقا ، لما أعجبك أن تفهم عنى ما كنت أريد . قال ذلك فى صوت غليظ متقطع ... الذى يصور السذاجة والمكر وحب ...

ثم أخذ بيدى ومضى معى حتى أجلسنى على كرسى أمام مائدة لم أكد أضع عليها يدى حتى لمست كتابا .

وكانت الخادم فى أثناء ذلك ما زالت قائمة وفى يدها اللطيفة سراجها الصغير، فالتفت إليها مغضبا ضاحكا معا ، وهو يقول : وما وقوفك أنت هنا كالصنم ؟ ثم خفض صوته قليلا وقال : ومع ذلك فان منظرها جميل يصور بعض ما تركه لنا القدماء من آثار الفن .

ولم تنصرف الصبية بسراجها ، وإنما ظلت مكانها حتى مد يده الى سلسلة تضطرب فى الجو فجذبها اليه فى شىء من العنف ، حتى إذا هبط إليه المصباح المعلق فى السقف أضاءه ورفعه، وقال للصبية : انصرفى الآن وعشينا إن كان عندك طعام.

ثم جلس منى غير بعيد وأشار الى غلامى الأسود الصغير أن استرح حيث تشاء . وبدأ حديثه معى فى لهجة الحازم الجاد . فقال والآن يا سيدى يجب أن ندع اللغو فما جئنا هنا لنلغو ولا لنلهو وأن نأخذ فى الجد فللجد وحده أقبلنا ، فحدثنى من أنت ، وسأحدثك من أنا حتى إذا عرف كل منا صاحبه

أخذنا فيما ينبغى أن نأخذ فيه ، قلت فانك تنظم الأمر كما تحب ، تتحكم فى ذلك تحكما غريبا لا تسألنى عن شىء ، ولا تستشيرنى فى شىء ،فانى لم أطلب اليك ان أجىء الى هذا المكان ولا أن آخذ معك فى لغو أو جد. قال مقاطعا فأنت لا تريد إذن أن تحدثنى عن نفسك حتى أحدثك عن نفسى. فسأحدثك عن نفسى ولكن بعد أن أنبئك انى أعرفك حق المعرفة ، وكنت خليقا أن تعرفنى لولا أنك حديث السن.

ثم قص علىّ من أمرى ما كنت أظن أنه أبعد الناس عن العلم به ، ولكنى لم أدهش لذلك حين ذكر لى اسمه وتحدث الىّ عن أسرته.وأنبأنى بانه من هذه القرية التى ليس بينها وبين مدينتنا الا ساعة أو بعض ساعة للذين يمشون على الأقدام وانه قد نشأ فى مدينتنا . أو أكثر التردد عليها حتى كأنه نشأ فيها . وأنه قد تعلم القراءة والكتابة فى نفس الكتاب الذى تعلمت فيه ، وقد عرف أخوتى الذين سبقونى إليه . وقد ظلت المودة متصلة بينه وبين بعضهم حتى تركت أسرتنا هذه المدينة الى أقصى الصعيد . وحتى هبطنا نحن الى القاهرة

نطلب العلم فى مدارسها المختلفة .

منذ ذلك الوقت تقطعت الأسباب أو رثت بينه وبين من كان يود من إخوتى ، فهو يسألنى عنهم واحدا واحدا ، وانا أجيبه . ثم أسأله عن نفسه كيف تعلم وماذا يعمل الآن فينبئنى بأنه أتم درسه الثانوى منذ أعوام واتصل بوزارة الأشغال يعمل فيها كاتبا فى بعض الدواوين . يختلف اليها وجه النهار ، ويعكف آخر النهار وجزء غير قليل من الليل على القراءة والدرس حتى كلف بهما أشد الكلف ، وأصبح عمله فى الوزارة وسيلة آلية . على حين هو عند أترابه من الشبان غاية لا يلتمسون غيرها غرضا من أغراض الحياة .

ولم يكد يتقدم الحديث بيننا فى هذه الشؤون حتى أقبلت الخادم تزيل ما على المائدة من كتب لتهيئها للأطباق وآنية العشاء . وقد زالت الكلفة بيننا وأخذت أسمع منه وأتحدث اليه كما يكون الأمر بين اثنين قد بعد العهد بما بينهما من المودة والحب والمخالطة ، فليس بينهما تصنع ولا تكلف ولا عناية بما يقولان .

وما هى الا لحظات حتى كنا نلهو ونضحك من ذكريات لم نلبث أن وجدناها مشتركة بيننا ، وكلها متصل بحياتنا فى الريف .

— ٥ —

قال لى فى بعض ما كان يقول ، وقد هدأ نشاطه وانخفض صوته، ورقت لهجته ، وجعل يتحدث الىّ كأنما يهمس همساً وكأنما يصدر صوته عن نفس متأثرة اشد تأثر ، وقد تملؤه الود والحنان . ولو أنى استطعت أن أرى وجهه فى تلك الساعة لما شككت فى أنى كنت خليقا أن أتبين فيه مظاهر التأثر وآيات الحنان .

قال لى فى هذا الصوت العذب هبنى فى القرية . ودبنك فى المدينة ، وهبنى أريد أن أزورك لأقضى معك شطرا من النهار ، فاين ألقاك ؟

قلت إنما يزار الناس فى دورهم ، قال فانى لا أريد أن أزورك فى الدار لأنى لا أريد كلفة ولا حرجا ، ولا تقيدا

بهذه الأوضاع التى يتقيد بها النـاس، ولا سيما الشباب، والصبية. حين يتزاورون فى الدور، حيث الآباء والأخوة الكبار. انما أريد أن ألقاك حرا، طلقا، لا تحسب حسابا لشيء ولا لأحد. وأحب أن تلقى عن رأسك هذه العمة الثقيلة التى تضطرك الى وقار لا أحبه لك، ولا أرضاه منك، وأن تخرج من هذه الثياب التى لا يلبسها إلا الشبان الذين تقدمت بهم السن الى ضحوة الشباب، فأنت فى آخر ليـل الطفولة، وفى أول فجر الشباب. قد أخذت نفسك تتفتح للحياة. وتبسم لها. وتخرج من غفلة الطفولة وتحاول أن تقدر الأشياء. وأن تزنها وأن تحكم عليها فى هذا الغرور الجميل اللذيذ، الذى يخيل الى الغلمان أنهم رجال، ويلقى فى روعهم أن آراءهم موفقة دائماً، وأن أحكامهم صائبة دائما، وأن الكبار من الرجال يخطئون. حين يسيئون الظن بهم، ويرونهم صغارا، ولا يشركونهم معهم فى كبار الأمور.

ألق إذن هذه العمة، واخرج اذن من هذه الجبة، ومن هذا القفطان. وعد إلى ثوبك الواسع الفضفاض، الذى

كنت تلبسه قبل أن تهبط الى القاهرة، والذى كان يمتز من ثيـاب أترابك من أهل الريف بضيق كميه و تكسرهمـا بعض الشيء عند آخرهما، وبهذا التكسر المنظم على الصدر، وفى أعلى الظهر وبهـذا الحزام العريض الذى كان يتصل به عند الخصر، ولكنه لايحيط بالجسم كله وانما هما قطعتان قدخيطتا على جانبي الثوب من يمين وشمال، ثم وصلت إحداهما بالأخرى أزرار من الصدف. عد الى هذا الثوب وضع على رأسك ذلك لغطاء الرقيق لأبيض لذى يسمونه العصاتية ومناهر بالطاقية وانما هو شيء يصطنعه المترفون من أهل المدن فى الأقاليم يقلدون به بعض قلانس الفرنجة ويسمونه "الطاقية الإفرنجية".

عد الى هذا الزى، وسأخرج أنا من هذا الزى الأوروبى وأعود الى الزى الذى كنت أصطنعه فى الريف حين لم أكن أذهب الى المدرسة فادخل فى ثوب من الصوف، مفتوح على الصدر، وأتخذ على رأسى الطربوش، كما يفعل المترفون من أبناء العمد. فانت تعرف أنى ابن عمدة. سنزور ريك ماشيا لا أركب لهذه الزيارة فرسا ولا حمارا، لأنى أريد ان أكون

حرا طلقا ، وان اقضى معك وقتا لا يشغلنى فيه التفكير فى فرس أو حمار .

عد الى زيك القديم وساعود الى زيى القديم و انتظر أن أزورك . وحدثنى أين القاك ، على الا يكون اللقاء فى بيتك فانا أعرفه حق المعرفة ، ولا أريد أن اجلس فى المنظرة ، ولا أريد أن أجلس فى ظل هذه العنبات التى تقوم الى جانبها ، ولا أريد أن ألعب فى هذا الفناء الذى ينبسط أمامها والذى ترونه واسعاً وأراه ضيقاً ، والذى يحب أبوك أن يجلس فيه اذا كان العصر ، والذى يؤثر سيدنا ان يقرأ فيه القرآن كل يوم قبل ان تطلع الشمس .

انما أريد لقاء حرا ، فى مكان حر ، ليس فيه رقيب يسمع لنا إذا تحدثنا . أو يسألنا اين تذهبان إذا أردنا أن نمضى أمامنا والا نلزم مكانا بعينه .

قلت وقد أثر فى نفسى حديثه وصوته ولهجته وما أثار من الذكرى . فرجعت إلى ذلك الطور الذى كنت فيه حين فارقت المدينة لأهبط الى القاهرة ، ورجعت الى ذلك الزى

الذى وصفه والذى كنت أعود اليه كلما عدت الى الأقاليم .

قلت فستلقانى إذن فى طريقك جالساً أمام دكان الشيخ محمد عبد الواحد ، على أحد هذين الصندوقين اللذين يكتنفان الدكان عن يمين وشمال ، واللذين يجلس عليهما الناس لينفقوا بعض الوقت فى الحديث وفى النظر الى من يأتى من الغرب ، أو من يذهب اليه ، والى النساء وهن يذهبن الى الإبراهيمية ثم لأن جرارهن ، ويعدن منها وقد أثقلت رؤسهن هذه الجرار وهن يتحدثن همساً بينهن ، أثناء النهار ، كما يتغنين جماعة حين يغدون مع الصبح . أو فى الاستماع الى حديث هاتين المرأتين اللتين تكتنفان الدكان عن يمين وشمال إلا أن إحداهما تلاصقه والأخرى قد أقامت دارها فى ناحية الأخرى من الشارع . أتعرفهما ؟ قال كم تعرفهما . فأما الأولى فزنوبة وأما الأخرى فأم محمود . كلتاهما تجلس على باب دارها وتتحدث إلى صاحبتها ألوان الحديث ، فى صوت مرتفع ، فيه عبث ودعابة ونين . وشباب المدينة يكلفون بالجلوس عند الدكان ليسمعوا لحديثهما وليد خلوا فيه من حين الى حين ، حين

يكون الحـديث دعابة . وما أكثر ما يكون الحديث دعابة بينهما ، فهما لا تحسنان فى الحياة إلا الدعابة وكسب المال .

قلت فستلقانى جالساً على أحد هذين الصندوقين ، فقد تعودت أن أقضى وجه النهار مع صاحب الدكان وأخيه . أتحدث مع أولهما فى أخبار الشيخ ماضى وآثاره وكراماته ومقاماته ، وأسمع من ثانيهما ما يقرأ على من كتب القصص . والوعظ ، لا ينقطع حديثنا ، ولا تنقطع قراءتنا إلا حين تأتى امرأة أو فتاة لتشترى بعض الملح . أو الفلفل . أو الخيط . أو ما يباع عندهما من سقط المتاع .

قال فقد انحدرت اليك من الغرب ، ولم أكد أهبط من الجسر حتى مررت بهذه الدور التى تعرفها فحييت حسن كوزو وهو جالس أمام داره ومن حوله امرأته وبناته وأبناؤه ، وهم يلغطون لغطهم المتصل ، ثم مررت بدار عم حسنين ، ولم ألقه من حسن الحظ ، فلو قد لقيته لاستوقفنى ولسألنى ، فيم أقبلت؟ وكيف تركت أبى ؟ وما بال أبى لا ينحدر الى المدينة ؟ وما أشك فى أنه كان سيستبقينى ولعله كان يلح على فى أن

اتغدى عنده ، فهو حريص على أن تتصل المودة بينه وبيننا ولكنى جزت الدار سالماً لم ألق أحداً ولم أتعرض لهـــذا الإكرام الذى كنت أخشاه . وقد رأيتك من بعيد وتبينت أنك لم تكن تتحدث الى صاحب الدكان ولا تسمع لقراءة أخيه إنما كنت معتزلا على صندوقك ، قد انثنى أعلاك على أسفلك ، وقد وضعت رأسك بين يديك ، والناس من حولك قائمون ، منهم من يشترى ، ومنهم من ينظر ، ومنهم من يمنح طرفه زنوبة . ومنهم من يمنح طرفه أم محمود ، وهذا الشيطان المارد ابن العمدة ، يذهب فى الشارع ويجىء ، متحدثاً متغنياً ، يلقى نظره خلسة الى هذه الحارة عن يمين الدكان ، حيث يقيم سيدنا وامرأته الشابة . وحماته العجوز ، وحيث تقيم عالية أم غريب .

وما أنذا انتهى اليك فأضع يدى على كتفك وها أنت ذا تذعر لمكانى منك ، ولكنك لا تكاد تسمعنى أحييك حتى تطمئن الى وتبسم لى . وتدعونى الى الجلوس ، ولكنى أبى ذلك عليك ، وأنهضك وآخذ بذراعك ثم نندفع معاً فى هذا

الشارع الذى يكاد يواجه بيت زنوبة ونمضى معاً الى القناة.

أنظر ها نحن هذان قد بلغنا القناة، فأما عن يميننا فحديقة جرجس افندى، ثم المنحدر الى بيتكم، وأما عن شمالنا فخيام العرب، الذين اختاروا هذا المكان مضربا لخيامهم، والذين يخفرون هذا الطرف من أطراف المدينة. الى أى الوجهين تريد أن نمضى؟ أتريد أن نمضى الى يمين لنبلغ المدينة، أم تريد أن نمضى الى شمال نحو الغرب لنبلغ الابراهيمية، فنأوى الى ظل شجرات التوت، أو نمضى أمامنا فى هذه الحقول التى لا تكاد تنتهى. أم تريد أن نعبر القناة فليس عبورها شاقاً ولا عسيراً، فهى جافة فى هذه الأيام: ألست تحس من حولك هؤلاء الصبية، وهم يلعبون فيها، ويلتمسون ما تخلف فى طينها من صغار السمك. الى أين تريد أن نمضى إننا إن عبرنا القناة لم نمض غير قليل فى هذا الفضاء الواسع الطلق حتى نبلغ الخط الحديدى. فاذا عدوناه فقد انتهينا الى المدينة من طريق قريبة. الى اين تريد ان نمضى؟

وما أرانى محتاجاً الى ان أسمع منك جواباً. فأنت تريد

من غير شك وأنا أيضاً أريد أن نأخذ طريقنا عن يمين فانها يسيرة مألوفة، وهي طريق الناس حين يأتون من المدينة أو يذهبون اليها. وهي خليقة أن تقدم لنا من ضروب اللهو وألوان العبث والمتاع ما نبتغي.فليس بيننا وبين حديقة المعلم إلا خطوات. ها نحن هذان قد بلغناها، وآثرنا أن نميل إليها فنجنى من ريحانها. ونقتطف من أثمارها، ونستظل بأشجارها ساعة لنتحدث فيما تعودنا أن نتحدث فيه. إنها لجميلة هذه الحديقة لم تتخذ زينة. ولم يعمل فيها المنسقون. وإنما هي حرة مطلقة! ينبت فيها الزهر والشجر كما يريدان في غير قيد ولا نظام. وإنها لجميلة حين تتقدم في رشاقة وخفة بما تحمل من زهر وثمر. وورق نضر وأغصان لدنة ينالقنة، كأنما تريد أن تهدى هذه كله الى هذا الماء حين يجرى فيها قوياً هادئاً موفور النشاط مع ذلك كأنه إنه شاب من آلهة الأساطير.

أنا أعلم أنك تحب هذه الحديقة وتجد لذة في أن تخلو فيها إلى نفسك فتقص عليها ما تتصور من الأحداث والخطوب، أو تعيد عليها ما تسمع من القصص والأحاديث وما مات

بك اليها إلا لأنى أعلم أنك تحبها وتؤثر أن تقضى فيها ساعات بعيداً عن الناس قريباً منهم فى وقت واحد. فأنا أعلم أنك لا تحب العزلة الخالصة، ولا تحب الخلطة الخالصة، ولكنى أحس الآن كأن مكانك ينبو بك، وكأنك لا تطمئن إلى الحديقة أو كأن الحديقة لا تريد أن تتلقاك بما تعودت أن تتلقاك به من البشر والأنس والحنان.

أحس أن جسمك كله يضطرب كأنه يكره السكون، ويندفع إلى الحركة دفعاً. ماذا تنكر من هذه الحديقة؟ أو ماذا تنكر منك هذه الحديقة: ألم تريد أن تخلو إلى كما تخلو إلى نفسك، وأن تقص على كما تقص على نفسك ما تعيده عليك الذاكرة أو ما يخلقه لك الخيال. ها أنت ذا أشبه شىء بالجواد الجموح الذى يعض شكيمته، ويضرب الأرض بسنابكه ويكاد يخرج من جلده مرحا وشوقا إلى العدو. إلى أين تريد أن تمضى؟

وهو يقول هذا كله فى لهجة جد واقتناع ويقين حتى ينسيني مكانى منه. ومكانه منى، ومكاننا من القاهرة وحتى

يتنعني بأننا صبيان ، أو شابان نقصد إلى النزهة في ريفنا ذلك البعيد ، وقد سمعت منه ، وآمنت له ، وهممت أن أجيبه . ولكنه منطلق لا يريد أن يقف ، متدفق لا يريد أن يهدأ . يسأل ولا ينتظر الجواب ، وإنما يجيب هو ويمضي في حديثه لا يلوي على شيء ، وأنا أسمعه وأتبعه وهو يسرع في الحديث ، وكأنه يسرع في الحركة ، حتى يعشيني سماعه ، ويعجزني اتباعه . ولكنه ماض في حديثه . ماض في حلمه . لا يقف عند شيء . ولا يلوي على شيء . والغريب أنه كان يتحدث فيثير في نفسي مثل ما يثير في نفسه من الذكرى . ثم يتحدث عني وعما أحب فكأنما أنا أتحدث عن نفسي .

قال : ذلك لا تريد البقاء في هذه الحديقة لأن نفسك لا تتيح بخلوة ولا بحديث تنذيه المطمئن . وإنما أنت اليوم دنيء بالحركة والنشاط الجسمي . وما أرى أنك تستريح حتى تكلف نفسك بالمشي جهداً ثقيلا . ولولا أنك شيخ ، وأنك تخشى المصاعب والعقبات . لآثرت العدو ولكلفت بالجري السريع . فهلم إلى الطريق العامة فليس لك

فى هذه الحديقة أرب منذ اليوم .

هلم وليكن مشينا سريعاً يشبه العدو . ولكنك لم تطاوعنى إلا قليلا وهأنا ذا أحس أن قدميك تثقلان وأن نشاطك ينال منه الفتور ، وأنك تؤثر مشياً رزيناً هو الى التلكؤ أدنى منه إلى الجد والسرعة . لقد فهمت أنه مكانك من هذه البيوت الأربعة التى تنتظم على شاطىء القناة فى نسق بديع وقد امتدت أمامها حدائقها الواسعة ذات الشجر الملتف والأغصان المتدلية على الأسوار . وأنت تريد أن تسعى سعيا هيناً إلى جانب هذه الأسوار . وأن تداعب بيدك هذه الأوراق الخضر النضر لأنك تجد فى مسها راحة ولذة ونعيما لنفسك وهدوءاً لقلبك الذى قلما يظفر بالهدوء .

تريد أن تقف وأن تعبث بهذا اللبلاب الذى يتلوى على سور المأمور ، تريد أن تداعبه وتلاعبه وتقوم اعوجاجه وتصلح التواءه ، ولكنك تعلم أنه لا يستقيم ، ولا يحب الاعتدال . ثم أنت تريد أن تطيل الوقوف عند بيت الملاحظ وما أظن إلا أن نفسك تنازعك إلى أن تطرق الباب ، وتدعو

عثمان أو محموداً ، فمن يدرى لعل أحدهما أن يستجيب لك وأن يدعوك إلى الدخول لتتحدث اليه ، أو اليه وإلى أخيه ساعة من نهار . إنك لشديد المكر ، وإن نفسك لشديدة الالتواء. لم تكذب على نفسك ؟ وتكذب على ؟ إنك لاتريد عثمان ، ولا تحب الحديث الى محمود ، وانما تريد أن تدخل الدار وأن تقطع اليها هذه الحديقة العريضة متلكئاً بعض الشئ ، متكلفاً بعض الأناة والمهل . حتى إذا بلغت الدار وأجلست فى هذه الحجرة المتواضعة التى لا تمس القدم فيهـــا أرضاً عارية كالتى تمسها حيث تلعب فى بيتك أو حيث تجلس عند الدكان ، وإنما تمس أرضاً قد رصفت بالحجارة وفرشت عليها البسط ، وهناك فى هذه الحجرة لاتلقى إلى صاحبيك إلا إحدى أذنيك ، أو بعض ما تستطيع أن تلقيه منها فاما أذنك الأخرى فمرسلة الى داخل الدار ، ومعها نفسك كلها . قل الحق . انك لاتريد عثمان ولا تبتغى الحديث إلى محمود ، وإنما تريد أن تسمع أحد هذين الصوتين اللذين تشيع فيهما العذوبة كما تشيع النضرة فى الغصن المورق اللدن . بل أنت أسعد الناس إن أتيح

لك الاستماع إلى الصوتين جميعاً .

أيهما آثر عندك وأحب إليك ؟ صوت هذه الفتاة الناهد التى تسمى عزيزة والتى توشك أن تلعب معك ومع أخويها لولا ما تأخذه به أمها التركية وأبوها الألبانى من تكلف الوقار والاحتشام . فهى تجلس اليكم وتسمع منكم وقد تشاركـكم فى الحديث . وقد يضحكها ما تخوضون فيه . فاذا ضحكها يضطرب فى الحجرة مشرقاً صافياً مضيئاً كأنه البلور. أم صوت أختها أمينة هذه التى نيفت على العشرين ، وجاوزت طور اللعب ، وتزوجت ثم طلقها زوجها فعادت الى أسرتها كئيبة محزونة هادئة الصوت ، ولكن صوتها الهادىء يثير فى قلبك وجلا . وفى نفسك اضطراباً ، وفى أعماق ضميرك قلقاً لا تتبين أصله ، ولا سره . ولكنك تخافه وتحبه معاً .

- أى الصوتين آثر عندك وأحب اليك ؟ إنى لأخشى أن تكون فاجر النفس ماجن القلب ، مسرفاً فيما تتيح لضميرك من حرية . إنك لتحب الصوتين جميعاً ، وتألف الأختين جميعاً ، وتحب أن تنعم ما وسعك النعيم بما تثيران فى نفسك

من هذه العواطف الحادة المبهمة الغامضة ، وإنك لتسمع لهما إذا تحدثتا أو ضحكتا أو جاءتا بشيء من الحركة فتعى عنهما هذا كله ، وتسجله فى نفسك تسجيلا حتى إذا عدت إلى دارك ، وآويت إلى مكانك الذى تعودت أن تعتزل فيه ، أخذت تعيد فى نفسك ما سمعت من كلام ، ومن ضحك ، ومن غناء ، وأخذت تتخيل ما أحسست من حركة ، وأخذت تتعمق هذا كله ، وتستخرج منه صوراً . ومعانى وعواطف وخواطر ، لا تحصى ولا تستقصى ولكنها تنسيك نفسك وأهلك ودارك وتنتهى بك إلى عالم غريب هو أحب إليك ألف مرة من هذا العالم الذى تعيش فيه . قل الحق : ألست أصور ما تجد ، وأقص ما تحس ، وأحدثك بما تحب أن أحدث إليك فيه . ولكنك قد أطلت الجلوس بين عمتك ومحمود ، والاستماع لعزيزة وأمينة . وهذا صوت المؤذن ينتهى إلينا داعياً إلى صلاة الظهر ، وسيقبل الملاحظ بعد وقت قصير . ومن يقينا لتدعين إلى الغداء . وأنا أعرف أن حياءك وأدبك يأبيان عليك أن تستجيب لهذا الدعاء . وأن نفسك تنازعك إلى البقاء . وما

أظن إلا أنك لو أرسلت نفسك على سجيتها لأقمت. ولا حتملت ساعة الغداء هذه الثقيلة لتستمع بعدها بساعات طوال، تنعم فيها بهذين الصوتين وما فيهما من فتنة وروعة وحنان. ولكن لاسبيل إلى الإقامة. وماذا نصنع بحيائنا؟ وماذا نصنع بأدبنا، وكيف تلقى أملك؟ وكيف نجيبها وكيف تثبت للومها العنيف حين تصور لك أن الفتيان الذين يحسن أدبهم لا يبقون فى الزيارة إلى أن يدركهم الغداء، ولا يستجيبون الى الطعام، إذا لم تسبق دعوتهم اليه.

هلم أيها الصديق البائس الحزين، ودع أمينة وعزيزة فقد يتاح لك أن تراهما إذا كان الغد أو إذا كان المساء، فأما الآن فصدقنى ليس لنا فى هذه الدار مقام.

أما الآن وقد تجاوزنا عتبة الدار، وأغلق من دوننا الباب، ورجع عثمان ومحمود أدراجهما فى الحديقة واستقبلنا القناة، فوقفنا على شاطئها لحظة مترددين، أنعود إلى حيث كنا بعد أن تقدم النهار؟ أم نمضى عن يمين إلى المدينة وإن عرضنا ذلك لشىء غير قليل من اللوم.

ثم آثرنا اللهو والعبث فأخذنا طريقنا عن يمين نحو الخط الحديدى نسعى هادئين . أما الآن فانى أحمد جدك وحزمك وشجاعتك وإصرارك على أن تنصرف حين هممنا بالانصراف، وإباءك على عثمان ومحمود وإباءك بنوع خاص على عزيزة وأمينة، وقد كانوا جميعاً يلحون علينا فى أن نبقى ويرغبوننا فى البقاء، يعرض عثمان ومحمود علينا أن يظهرانا على ما عندهما من أعاجيب القاهرة، هذه اللعب التى لا تنتشر فى الريف، ولا يألفها أهل الأقاليم، وتعرض علينا عزيزة العزف على البيانو، وتعرض علينا أمينة القراءة فى بعض القصص، وأنت مصمم على الانصراف برغم نفسك التى كانت تنازعك الى البقاء نزاعاً شديداً .

على أنى لا أفهم كلفك بالاستماع لعزيزة وأمينة، وافتتانك باحاديثهما هذه التى يلتوى فيها لسانهما بلهجة أهل القاهرة فى تأنق وتكلف وتعمد للفتنة، كأنما تريد كل واحدة منهما أن تدل على نفسها، وتنبهنا الى أنها ليست منا، والى أننا لسنا منها فى شىء، إنما هى من هذا العنصر الممتاز الذى لا ينطق الجيم كما ننطقها،

ولا يحول القاف كما نحولها إلى جيم غليظة ، وإنما يحيلها إلى همزة رقيقة خفيفة حسنة الموقع فى الأسماع ، ولا يمتلىء فمه بالكلام يهدر به كما تهدر الإبل ، وإنما يضيق به ويتلطف فى إرساله ويجريه هادئاً حلواً رقيقاً . فيخرجه أحسن مخرج ، ولا يلقيه كما نلقيه نحن إلقاء الجنادل والصخور . لا يعجبنى شىء من هذا لأنى أراه تكلفاً وتصنعاً ، ومن يدرى لعلنا إن رأيناهما فى القاهرة ، واستمعنا لهما فى بيئتهما الطبيعية أن نجدهما أقل تكلفاً وأدنى الى الفطرة ، ولعلهما يومئذ تجدا الى نفسى الغليظة سبيلا . أما الآن فان قلبي مغلق دونهما إغلاقاً ، وإنى لأوثر ألف مرة عليهما فتياتنا الريفيات، وما يمتزن به من حياء حلو وخفر ناعم ، وحديث عذب على غلظته ، وصوت محبب إلى النفوس على ما يضطرب فيه من بعض الجفاء ، ستغضب وستثور وستنكر ذوقى أشد الإنكار ، ولكنى لا أتردد مع ذلك فى أن أعلن إليك أنى أوثر كاملة بنت عالية واخت غريب على عزيزتك هذه المتكلفة المتصنعة . وأوثر خديجة بنت محبوبة وأخت علىّ ، على أمينتك هذه التى ترى أن ليس على

الأرض امرأة تعدلها أو تدانى حظها من الرقة والجمال .

إنى من أنصار الحسن الطبيعى الذى لا يجتلب ، ولا يشترى . وإنما تخلعه الطبيعة وتفيضه على الوجوه والنفوس ، هذا الحسن الذى تحدث عنه المتنبى . أتذكرينه؟ إنه مشهور :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفى البداوة حسن غير مجلوب

— ٦ —

وكأن هذا البيت من شعر المتنبى قد أيقظ صاحبى من نوم عميق ، ورده من هيام بعيد، ونبهنى أنا إلى مكانى منه ، وإلى مكانه منى . فما كان بشابين جاهلين من شباب الريف أن يديرا بينهما مثل هذا الحديث، أو يذكرا مثل هذا الشعر. وأين حديث الريف الساذج اليسير الذى لا فلسفة فيه ولا تعمق من هذا الحديث الطويل الذى اندفع فيه صاحبى كأنه السيل لا يرده شىء، والذى أخذ يتكلف فيه ما تكلف ، ويصطنع فيه ما اصطنع على غير شعور من الفلسفة والتعمق والدقة فى التفكير والتعبير . فلما سمع صوته ينشد هذا البيت ثاب إلى

نفسه، وثبت أنا إلى نفسى وإليه ، فلبث دقائق صامتاً لا يقول شيئاً كأنمـا كان يستجمع قواه المفرقة، ويدعو إليـه نفسه الشاردة ، وينتظر أن يعود إليه عقله وقلبه من مدينتنا تلك فى الريف ، فلمـا استجمع من ذلك كله ما كان يريد قال فى صوت هادىء عميق : أين أنا ، وماذا كنت أقول ؟ ثم أرسل ضحكته العريضة المخيفة ونهض قائماً وهو يقول أما إننا قد طعمنا حتى اكتفينا. هذه الصبية البلهاء قد أقبلت فوضعت طعامنا على المائدة ولم يخطر لها أن تدعونا إليه ، كأنمـا ظنت الحمقاء أنى رأيتها أو سمعتها أو أحسست مقدمها وكأنها لم تشعر أنا كنا غائبين نسعى فى مدينة من مدن الريف ، وهذا خادمك الأحمق قد جلس على كرسيه عند باب الغرفة وهو يغط معنا فى نومه العميق كأن أحاديثنا لم تـكن تعجبه ولا تروقه ولا تصل إلى نفسه الغليظة المحجبة بحجب الجهل والجفوة والغفلة.
ثم ثاب إلىّ ووضع يده على كتفى وهو يقول : وأنت ماذا أحسست من هذا الحديث ؟ ولم يمهلنى ، ولم ينتظر منى جواباً، وإنما اندفع يقول ما أرى إلا أنك ظننت بى الجنون وأخذت

تسأل نفسك أين أنت،وتمقت الساعة التى لقيتك فيها وتلوم نفسك لأنك طاوعتنى واستجبت لدعائى ، وتشفق ألا تتاح لك العودة إلى أخيك ، ومن يدرى لعل المتنبى قد أنقذك حين جرى هذا البيت من شعره على لسانى فردنى إلى نفسى وإليك، ولعلك إن بقيت تسمع لى وأنا أمضى فى هذا الهذيان ، كنت مضطراً إلى أن تنتهى آخر الأمر إلى الهلع والجزع ثم الى الاستغاثة والصياح ، ومع ذلك فثب إلى نفسك وامنحنى بعض عنايتك وحدثنى : أليس هذا فناً من الشعر ونحواً من أنحائه ؟ لا تظن أن القدماء من الشعراء كانوا يصنعون شيئاً غير هذا حين كانوا يقفون ويستوقفون على الأطلال والديار وحين كانوا يذكرون ويذكرون بمن كان يقيم فيها ثم ارتحل عنها من الأحبة والأخلاء ، وحين كانوا يتبعون الضاعنين ويصفون ما سلكوا من طريق ، وما عرض لهم فى سفرهم من خطوب ، وما أنضوا من إبل وما وردوا من ماء آجن وما انتهوا اليه من مرعى . إنما كانوا يصنعون مثل ما صنعت ويهيمون مثل ما همت . وينسون أنفسهم كما نسيت نفسى .

ويرسلون قلوبهم كما أرسلت قلبي على جناحي هذا الطائر الخفيف الرشيق الذي يحسن الإسراع ويحسن الإبطاء ويحسن المضي ويحسن الوقوف وهو الذكرى.

وحدثني أفهمت شيئاً من حنين القدماء على وجهه حين قرأت ما قرأت من شعر امرىء القيس، وغير امرىء القيس من هؤلاء الذين كانوا يحسنون الذكرى ويجيدون تصوير الوفاء. إنما هي عندك ألفاظ تقع في أذنيك كما يقع غيرها من ألفاظ، تفهم الظاهر من معانيها، فان أعجزك الفهم سألت كتاباً من كتب اللغة فلا ينبئك إلا بظاهر من معانيها. لا تكاد هذه الألفاظ تتجاوز أذنيك إلى عقلك فضلا عن أن تتجاوزهما إلى قلبك وإلى ضميرك فتثير فيهما عاطفة أو هوى أو ميلا وتدعوك الى أن تقدر الحياة كما ينبغي أن تقدر الحياة. صدقني أنكم لا تدرسون الشعر ولا تدرسون الأدب؛ وإنما تدرسون ألفاظاً ومعاني وصوراً ليست من الشعر ولا من الأدب في شيء.

قلت وقد أعجبني حديثه وأرضتني آراؤه ولكني على ذلك

ضقت بهذا السيل الذى لا يقف ، وأشفقت من أن يمضى فيه كما مضى فى الذكرى آنفاً ، ومن أن تنفق بقية الليل كما أنفقنا أوله ، وأشفقت بنوع خاص من أن يلهينا هذا الحديث المتصل والسيل المتدفق عما نحن فى حاجة إليه من طعام . وعما أنا فى حاجة إليه من التفكير فى العودة إلى بيتى ، فما أشك فى أن غيبتى قد طالت ، وفى أنها ستطول ، وفى أنها ستلحظ ، وفى أنى سأسأل عنها إذا كان الغد .

قلت ضاحكا فما يمنعك أن تعلن آراءك هذه إلى الناس فى صحيفة من الصحف . أو فى محاضرة من المحاضرات . بل ما يمنعك أن تلقى على الناس دروساً فى الأدب . فيسمع لك الشباب ، وسينتفعون بما تلقى إليهم من حديث . ثم ما يمنعك أن تمضى معى فى هذا الحديث أثناء العشاء . وبعده وأثناء الطريق ما دمت قد ضمنت لى أن تصاحبنى إلى بيتى البعيد . قال وهو يضحك ضحكا غليظاً ، بل قل ما يمنعك أن تكف عن هذا اللغو وأن تأخذ فى الجد فقد زعمت لى أننا لم نجتمع هنا لنلغو وإنما اجتمعنا لنجد .

وهذا حق . فما فى شىء من هذا كنت أريد أن أتحدث اليك ، وما إلى شىء من هذا دعوتك الليلة ، وإنما هو تعارفنا وتحدثنا عن الريف قد شط بى ودفعنى إلى الاستطراد، فلنعد إذن إلى ما كنا نريد أن نأخذ فيه ولنقبل على طعامنا قبل كل شىء .

وأخذنا فى حديث جديد لم يصرفنا عن الطعام ، ولكنه لم يعجل عودتى إلى بيتى . فقد كان الجد الذى يريده صاحبى أنه يجب أن يكون بينه وبينى تعاون فى الدرس يعلمنى بعض ما عنده، وأعلمه بعض ما عندى . فهو يرى أن أمرى فى الجامعة لا يستقيم إلا إذا تعلمت لغة أجنبية وألممت ببعض هذه العلوم التى كنا نجهلها فى الأزهر جهلا تاماً ، والتى كان جهلنا إياها يخيل إلى والى أصحابى أننا نسمع من المحاضرين فى الجامعة الأعاجيب مع أننا لم نكن نسمع منهم إلا أيسر الأشياء وأهونها .

وهو كان يريد أن يمنحنى من ذلك ما ينقصنى ، لا يسألنى على ذلك أجراً إلا أن أعوده معاشرة كتب الأزهر ، والتصرف فى علم الأزهريين . وكانت علوم ثلاثة من علوم الأزهر تخلبه وتشوقه بنوع خاص ، وهى المنطق والفقه

والأصول . فاما المنطق فقد كان أمره يسيراً ، وكنت ارى أنى أستطيع أن أقرأ معه كتاباً من كتبه المختصرة.وأما الفقه والأصول فقد كان أمرهما أعسر من ذلك وأشق. وأنى لى أن أعلمه علما لا أحسنه وما أظن أنى سأحسنه فى يوم من الأيام . وهو مع ذلك مصمم على أن يدرس المنطق والفقه والأصول وعلى أن يعلمنى الفرنسية . ويقرأ معى ما أحب من التاريخ وما أشاء من هذه الكتب التى لابد من قراءتها لمن يريد أن يعيش فى هذا العصر الحديث عيشة لا غربة فيها . وكان حوارنا طويلا شاقا ملتويا فيه كثير من الاستطراد حتى لقد انصرفنا من داره وقد كاد يسفر الصبح . وما كدنا نبلغ حينا فى أقصى الجمالية حتى سمعنا المؤذن ينبىء الناس بأن الصلاة «خير من النوم» . وكنا لم تنم فعدنا أدراجنا وفى ذلك اليوم جلس معى إلى أستاذ الأصول رجل ليس على رأسه عمامة بل على رأسه طربوش .

وافترقنا بعد الدرس على أن نلتقى فى الجامعة كل يوم إذا كان المساء . وعلى أن نرتب أمرنا بيننا يعلمنى الفرنسية

وأعلمه المنطق . ومن ذلك اليوم لم نفترق حتى أتيح له أن يسبقني إلى باريس .

كنا نلتقي في قهوة بشارع كبرى قصر النيل قريبة من الجامعة قبل أن تبدأ المحاضرات بساعة أو أكثر من ساعة، فنأخذ في أحاديث مختلفة. وكثيراً ما كان يشاركنا في أحاديثنا بعض الطلاب حتى إذا أقبلت ساعة الدرس نهضنا اليه ، أما هو فكان ينهض متثاقلا دائما . وأما أنا فكنت أنهض خفيفا شديد النشاط . وكان يضحك من خفتي ، وكنت أضيق بتثاقله . وكان يقول لي هون عليك فلا يأتين يوم تنصرف فيه عن هذه الدروس انصرافا .

ولم أكن إذا دخلنا غرفة الدرس أفر من مجلسه ، ولم يكن ينغص على الاستماع للأستاذ حتى إذا انتهينا من الاستماع انصرفنا إلى داره او إلى داري أو إلى قهوتنا في شارع كوبري قصر النيل فزعم لي أنه يعلمني الفرنسية ، وزعمت له أني أعلمه المنطق . والحق أننا لم نكن نصنع من هذا شيئا، وإنما كنا نمضي في لغو مختلف متصل كهذا الذي صورت بعضه

آنفا، وكنا ننفق فى هذا اللغو خير أجزاء الليل، ثم نفترق. فأما هو فكان ينفق بقية الليل فى القراءة أو الكتابة ثم فى نوم قليل، ثم يصبح فيغدو على ديوانه. وأما أنا فكنت أنفق بقية الليل فى تفكير طويل مضطرب لا يكاد يذيقنى النوم إلا غراراً، فاذا دعا المؤذن إلى الصلاة أسرعت الى الأزهر، وقضيت وجه النهار مستمعاً للأساتذة أو دارساً مع الطلاب حتى إذا أقبل المساء التقينا كدأبنا فى كل يوم.

وانقضى العام الأول والثانى والثالث من حياتنا فى الجامعة على هذا النحو، لم يتقدم هو فى درس المنطق، ولم أتقدم أنا فى درس الفرنسية. ولكننا تقدمنا فى إدارة هذه الأحاديث الطويلة المختلفة التى تلم بكل شىء ولا تكاد تتقن شيئاً، ولكنها تفتح القلوب لألوان من العواطف وتهيىء النفوس لضروب من الخواطر. وتغير الطريق التى كان كل واحد منا قد رسمها لنفسه فى الحياة.

كان يريد أن ينفق حياته موظفاً يثقف نفسه ثقافة جديدة فى كل يوم. ويلتمس لذته فى القراءة والكتابة والحديث.

فاصبح أشد الناس بغضاً لديوانه ، وزهداً فى عمله ، ورغبة فى أن يهجر مصر ويعبر البحر إلى بلد من هذه البلاد التى يطلب فيها العلم الواسع والأدب الراقى ، وتتغير فيها الحياة من جميع الوجوه . وكنت أريد أن أكون شيخاً من شيوخ الأزهر، مجدداً فى التفكير والحياة على نحو ما كان يريد المتأثرون للشيخ محمد عبده ، أستعين على ذلك بما أسمع فى الجامعة ، وما أقرأ من الكتب المترجمة ، وما أجد فى الصحف ، وما أتلقط من أحاديث المثقفين فأصبحت وأنا أشد الناس انصرافا عن الأزهر.ونفوراً من دروسه وشيوخه وحرصاً على أن أهجر مصر وأعبر البحر الى بلد من هذه البلاد التى يطلب فيها العلم الواسع والأدب الراقى وتتغير فيها الحياة من جميع الوجوه، ولم يكن لصاحبي ولا لى إذا التقينا حديث إلا هذه الهجرة وأسبابها وإلا هذه الأحلام العريضة البعيدة التى لا حد لها ، والتى تستأثر بنفوس الشباب حين يفرضون على أنفسهم بلوغ غاية بعيدة شاقة . وحين تخيل إليهم آمالهم أن بلوغ هذه الغاية أمر يسير .

ثم أصبحت ذات يوم مشغول النفس بما كنا نتحدث فيه أمس ، وأنى لجالس فى بيتى لم أذهب إلى الأزهر،وما كان أكثر تخلفي عن الأزهر فى هذه الأيام ، وانقطاعى الى خادمى الأسود الصغير . يقرأ لى قراءة محطمة أقيمها أنا ، وأصلح معوجها فى نفسى . يقرأ لى مرة فى ديوان من الشعر ، ومرة فى كتاب من كتب التاريخ ، وحينا فى قصة من قصص العامة . إنى لجالس ذات يوم الى خادمى الأسود وهو يقرأ على ديوان البحترى ، وإذا الباب يطرق طرقاً عنيفاً : وإذا صاحبي يدخل وكأنه العاصفة ، وإذا هو يدعونى فى صوت سريع إلى أن أنهض فألبس ثيابى وأخرج معه . وأن أسرع ، فان العربة تنتظرنا . وأحاول أن أسأله كيف خرج من ديوانه وما هذه العربة التى تنتظرنا ، وإلى أين يريد أن يذهب بنا ولكنه لايجيب ، وإنما يستعجلنى ويلح فى الاستعجال حتى إذا تركته وذهبت لألبس ثيابى سمعته وهو يذهب ويجىء كالمجنون . ويتغنى فى صوته الغليظ بما يحضره من الشعر . ثم أخرج له فيخطفنى خطفاً ، ويعدو بى عدواً حتى يلقينى فى العربة القاء ،

ثم يأمر السائق أن يمضي إلى مكان كذا حيث يقيم فلان .

ثم يهدأ بعض الشيء ، وينبئني بأن الجامعة قد أعلنت في الصحف أنها سترسل طلاباً إلى أوروبا ، وقد حددت موعد الامتحان وأنه سيتقدم بالطبع لهذا الامتحان ، وأنه قد أقبل إلى ، لألقى فلانا وفلانا وفلانا ، وكلهم من أعضاء مجلس الجامعة ويجب أن أوصيهم به خيراً . فهو واثق بأنه سيجوز الامتحان على أحسن حال ، ولكنه يخشى أن يغلبه على الفوز بالبعثة أولئك الشبان الذين يتوسط لهم أصحاب الجاه .

ومادمت ياسيدى تعرف فلانا وفلانا وفلانا من أصحاب الجاه، أعضاء الجامعة فليس لك بد من أن تتحدث إليهم، ومن أن تتحدث إليهم اليوم . ومن أن تتحدث إليهم أمامى . لهذا كله تركت عملى ولهذا كله استأجرت هذه العربة . ولهذا كله استعجلتك هذا الاستعجال . وما هي إلا أسابيع حتى تم لصاحبي ما كان يريد . وأصبح عضواً في بعثة الجامعة وأخذ يتهيأ للرحلة إلى باريس .

— ٧ —

يونيو فى ....

ليتنى لم أسمع لك أيها الصديق.فقد كنت أوثر ان أرحل إلى فرنسا دون ان أذهب الى ريفنا الحزين لأرى أبوى وأسرتى ولأرى قريتنا ، ولأملأ نفسى من هذه المشاهد الجميلة التى نشأت فيها،وكنت أرى أنى سأجد فى هذه الرحلة القصيرة إلى الريف آلاماً يحسن أن أتجنبها وأن أستقبل الحياة الجديدة بنفس مشرقة وقلب لا يجد حزناً ، ولا يحس لوعة ، ولا يأسى على شىء . وأنا أكره الوداع وأرى فى السفر كما يقول بعض الشعراء من الفرنج نوعا من الموت.ولا أحب أن أتلقى الموت مهما يكن يسيراً على علم به ، و تنظر له ، وإشفاق منه . وإنما أوثر أن يفاجئنى مفاجأة . وأن يختطفنى اختطافاً . وأن أخرج من الحياة جاهلا بخروجى منها كما أقبلت على الحياة جاهلا باقبالى عليها .

لقد كنت شديد التردد فى الذهاب إلى الريف ، أحس من نفسى ضعفاً شديداً عن احتمال هذا الوداع المؤلم ، وداع هذين الشيخين اللذين لم يكونا يحتملان إقامتى فى القاهرة بعيداً عنهما إلا كارهين،فكيف بهما إذا علما أنى لن أقيم فى القاهرة . وأن تكون بينهما وبينى ساعات ، ولكنى سأعبر البحر الملح العريض إلى بلاد نائية لاتحسب المسافة بيننا وبينها بالساعات، وإنما تحسب بالأيام . لقد كانا يكرهان أشد الكره إقامتى فى القاهرة ، هذه المدينة التى لايتكلم أهلها كما نتكلم ، ولا يعيش أهلها كما نعيش ، والتى يملؤها الفساد ويملؤها الصلاح فى وقت واحد . والتى يجرى فى شوارعها الترام والتى يكثر بين أهلها المحتالون والسراق ، والتى يخرج الرجل من بيته فيها فلعله لا يعود اليه . فكيف بهما حين يعلمان أنى سأقيم فى ذلك البلد البعيد الغريب الذى لا صلة بينه وبيننا فى لون من ألوان حياتنا المعروفة . والذى لا يعلمان من أمره إلا أنه بلد الفتنة والعبث ، وموطن اللهو والمجون . أليس اليه يقصد السراة وكبار الأغنياء والمترفين من سادات الريف إذا

اجتمعت لهم المقادير الضخمة من الذهب فلا يكادون يقضون فيه الصيف حتى يعودوا وقد صفرت أيديهم من كل شيء، وهم يقصون من أنبائه وأحاديث العبث والفسوق فيه ما تشيب له الأطفال، وترتاح له نفوس الرجال. لقد كنت أقدر هذا كله حين كنت تجادلني في زيارة الريف قبل أن أبرح الأرض، ولكنك ما زلت تلح علي وتذكرني وتثير في نفسي من العواطف والذكريات حتى استحييت منك ومن أبوي ومن الناس ومن نفسي أيضا. ورأيت أني لا أستطيع أن أفارق مصر، دون أن أرى هذين الشيخين فمن يدري لعلي أذهب فلا أعود، ومن يدري لعلي أعود فلا ألقاهما.

هنالك رحلت إلى الريف وليتني لم أفعل فلم أكن أظن أني سألقى في هذا الريف ما لقيت من حزن لاذع وألم ممض ويأس لا صبر معه ولا احتمال له.

لا أصف لك جزع أمي ولا سخط أبي، فحسبك أن تعلم أن أمي لا تصيب من الطعام إلا ما يقيم الأود، وهي لا تصيبه إلا بعد إلحاح متصل. وإنها لا تذوق النوم إلا غراراً وإنها

لا تمسك الدموع، وإنما ترسلها إرسالا حتى تنقطع، وإنها تعتقد اعتقاد يقين أنها قدفقدت ابنها الذى كانت تحبه وتؤثره وتدخره للحوادث والنائبات . وهى تمقت الجامعة وأيام الجامعة والذين فكروا فى الجامعة . وهى تمقت العلم والذين يحبون العلم ويدعون اليه، وهى تلعن المدارس وهذا التمدن الذى علم مصر فتح المدارس ،وهى تأسف أشد الأسف وتندم أقسى الندم كلما ذكرت ذلك اليوم الذى أراد فيه أبى أن يقلد أباك . فأخرجنى من الكتاب كما أخرج أبوك من أخرج من إخوتك.وأرسلنى معهم إلى المدرسة الابتدائية فى عاصمة الاقليم.هنالك حيث طرحت زى الريف واتخذت هذا الزى الأوروبى، ووضعت على رأسى هذا الغطاء البغيض .

ولست أخفى عليك أنها تنال أسرتك بكثير من لاذع القول، فهى التى ألقت فى روعنا أن من الخير أن يتعلم الأطفال فى هذه المدارس. وأن يلبسوا الطربوش ،وأن يلووا ألسنتهم بالرطانة الأجنبية، وأن يصبحوا موظفين . وهى لا تفهم كيف استطعنا أن نعدل بما تعودت أسرتنا منذ الزمن البعيد

من الاختلاف إلى الكتاب حتى نحفظ القرآن، ونحسن القراءة والكتابة، ومن الاختلاف إلى الأزهر حتى نحصل شيئاً من علوم الدين. ثم نعود إلى القرية حيث الجد والعمل، وحيث الغنى والثروة، وحيث الجاه وبعد الصوت.

لا أطيل عليك فأمى ثائرة إذا أصبحت، ثائرة إذا أضحت، ثائرة إذا أقبل المساء، ثائرة إذا جنها الليل، ثائرة حتى امتلأ البيت حزناً وسخطاً وبكاء. فأما أبى فتنكر متنمر، ينذر فيلح فى النذير. ويتلطف فيلح فى التلطف، فإذا أعياه النذير ولم يسعده الاستعطاف، خرج عن طوره فأسخط من حوله جميعاً، وجعل حياتهم لا تطاق. وأقسم جهد أيمانه ليقطعن ما بينه وبينى من سبب وليعيشن منذ الآن كأنى لم أكن له ابنا ولو أنى استمعت لنفسى أيها الصديق لما أقمت فى هذا الجحيم إلا يوماً أو يومين. ولأسرعت إلى القاهرة فانتظرت فيها معك ومع أصدقائنا هذا اليوم السعيد الذى تتنقل فيه السفينة بنا إلى هذا العالم الجديد الذى ملك على نفسى كلها وقلبى كله.

ولكن كيف أستطيع أن أدع هذين الشيخين فيهما

فيه، ولما أبذل ما أقدر عليه من الجهد لأهون عليهما الأمر بعض الشيء، ولأردهما إلى بعض الطمأنينة ولأرحل عنهما وهما راضيان غير ساخطين. وإنى لأجد فى ذلك ما وسعنى الجد، وأحتال لذلك ما واتتنى الحيلة، وأستعين على ذلك ببعض من له حظ من فهم، ونصيب من ذكاء، وعلم بحياتنا وما تقتضيه من تطور، وبما بين حياتنا فى هذا العصر وحياة آبائنا قبل أن نولد أو حين كنا أطفالا. وما أظن أنى سأبلغ وحدى أو بمعونة هؤلاء الناس شيئاً. فأمى مستيقنة بأنى إن سافرت فقد فقدتنى، وأبى مقتنع بأنى إن سافرت فقد قطعت بينه وبينى كل سبب.

فى ذات يوم أصبحت ضيق الصدر كئيب النفس، شديد الحرج، ممتلئاً بهذا العجز المؤنس عن رضاء هذين الشيخين، كارهاً أشد الكره للدار والقرية ومن فيهما، فخرجت أهيم فى الريف ألتمس راحة النفس فى تعب الجسم، ولست أزعم أنى خرجت أريد وجهة بعينها، أو أسعى إلى غاية معروفة، وإنما هو المشى. والإبعاد فيه، والخلوة إلى النفس، والفرار

من لوم اللائمين ، وعذل العاذلين ، وإلحاح الملحين . وإنى لأمضى أمامى لا أحفل بشىء ولا أقف عند شىء ، وأكبر الظن أن كثيراً من الناس الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم قد لقونى فحيونى ، وما أشك فى أنهم قد أنكرونى لأنى لم أسمع منهم ، ولم أرد عليهم تحيتهم ، ولعل كثيراً منهم قد تحدث إلى نفسه بان هذا أول الشر ، وبادرة الفساد ، إنه ليعرض عنا ، ويكبر علينا ، ولم يذهب إلى بلاد الفرنج بعد ، فكيف به إذا ذهب اليها وعاد منها .

والله يشهد ما رأيتهم ولا سمعتهم ، ولا أحسست مكانهم منى ، إنما كنت مشغولا بنفسى عنهم وعن كل شىء . وإنك لتعلم انى كثيرا ماحدثتك عن كلفى بالخروج إلى الريف ، والتروض فى الحقول أثناء هذا الفصل من العام ، حين يكون الحصاد ، وحين يشتد النشاط ، وحين تنتشر فى ريفنا هؤلاء الفتيات الفقيرات الحسان متبذلات بحكم الفقر ، يطوفن بالحقول ويلتمسن أقواتهن فى التقاط ما يسقط من الحب . إنك لتعلم كلفى بالخروج فى هذا الفصل وأنى أجد لذة حارة حادة فى

الاستمتاع بهذا الجمال الطبيعي الذي تسبغه الحياة العاملة الجدة على أهل الريف حين يخرجون من أطوار الخمود والجمود. ويفنون في طبيعتهم هذه، ويصبحون وكأنهم أدوات للعمل والانتاج. لهم جد الأداة وصدقها واستقامتها وصبرها وأعراضها عن الشكوى، وبعدها عن الملل والسأم، فما رأيك في أن هذا الجمال الذي يفتنني ويملك على قلبي ويحملني على الرحلة إلى الريف إذا كان هذا الفصل من كل عام، لم يصل إلى قلبي. ولم ينته إلى نفسي في هذا اليوم. فلم أقف عند الأجران ولم أتحدث إلى المصيفات، ولم أداعب فتى ولا فتاة من هؤلاء الشباب الذين يملؤهم العمل نشاطاً ومرحاً ويقيناً وثقة وإيماناً. إنما مضيت أمامي لا ألوى على شيء كأنما تدفعني قوة خفية إلى غاية خفية لم أتبينها ولم أتنبه لها، إلا فجأة حين رأيتني واقفاً جامداً وحين أنكرت من نفسي هذا الوقوف وهذا الجمود ونظرت من حولي كأني أفقت من نوم عميق فما يروعني إلا أن أراني واقفا أستظل بشجرات توت عند [illegible] خيمية. هناك حيث مدخل المدينة لمن أقبل

عليها من الغرب .

تبارك الله فلم أكن إذن قد خرجت من دارنا ضيقا بها وبمن فيها ، ولم أكن اذن قد خرجت من قريتنا فراراً منها ومن أهلها ، ولم أكن إذن قد همت فى الريف التماساً للخلوة إلى نفسى والراحة مما كنت أجد من عناء ، وإنما خرجت من الدار وخرجت من القرية ومضيت فى الريف أمامى لأنى لم أكن أجد بدآ من أن أزور هذه المدينة التى أنفقت فيها أحسن أيام الصبى ومن أن ألم بهذه الربوع التى ذقت فيها أطيب ما ذقت فى الحياة من لذة قوية نقية طاهرة بريئة من كل إثم .

إذن فلتعد إلى نفسى النافرة ، وليثب إلى قلبى الجامح . وليراجعنى هذا العقل المضطرب المشرد ، ولأستجمع كل ما أستطيع أن أستجمعه من قوة الحس والنفس والشعور لأستمتع بالحياة القوية الخصبة فى هذه المدينة الحبيبة إلى نفسى ، الكريمة على قلبى ، ولآخذ منها بأعظم حظ ممكن من المتاع ، ولأجعله زاداً لى فى هذه الرحلة البعيدة التى أنا مقبل

عليها ، وأجعله ذخراً لى فى هذه الإقامة الطويلة التى سأقيمها فى ذلك البلد الغريب .

لأملأ إذن عينى مما سأرى ، ولأملأ إذن أذنى مما سأسمع ولأملأ إذن نفسى وقلبى مما سأجد ، وإنى لأنظر فلا أكاد أرى إلا الابراهيمية تمتد أمامى ويسعى فيها الماء هادئا حلو السعى ، وإلا هؤلاء الناس يسعون متفرقين منهم المقبل من الغرب يحمل إلى المدينة ما يبعث اليها الريف من العروض ومنهم الذاهب الى الغرب . يحمل إلى الريف ما تذيع المدينة فيه من التجارة ، بعضهم راجل ، وبعضهم راكب ، وقليل منهم يتحدث إلى رفيق ، وكثير منهم يغرق فى الصمت كأنما يفكر فيما وراءه أو فيما أمامه. وقليل منهم يتغنى كأنه يستعين بالغناء او يعين به دابته على احتمال السفر البعيد ، وامرأة أو فتاة تأتى من حين إلى حين ، فتغمس جرتها فى الماء حتى إذا امتلأت رفعتها إلى رأسها ونهضت تسعى بها رشيقة رائعة الجمال غامضة فى هذا الصمت الذى يحجب نفوس النساء ، ويستر ما يجول فيها من خواطر يود الرجل لو يعرف منها

بعض الشيء . وانى لأمد سمعى فلا أسمع إلا هذه الأصوات المختلفة التى تأتينى من هذه الحركات كلها . وهذا اللحن الحلو المتصل المتشابه الذى يأتينى من هذه الأطيار وقد استقرت على الغصون . وكأنها وجدت لذة الراحة وأحست رقة النسيم و استمتعت بخفض العيش بين هذه الأوراق النضرة ، فهى تتغنى بالجمال واللذة والأمل وحب الحياة . وإنى لأمد نفسى كلها فلا أحس الا حياة هادئة قوية نقية تأتينى من كل وجه . من الحركات التى أرى . ومن الأصوات التى أسمع ، ومن هذا النسيم الخفيف الذى يمسنى مساً رفيقاً فيرد الى النشاط ويحي فى نفسى الأمل ، ويلقى عنى كل ثقل ويكاد يهبنى جناحين ويكاد يجعلنى طائراً بين هذه الطير ، ويكاد يرسل صوتى كما أرسل صوتها بالغناء . وأنا أقيم هنا فى ظل شجرات التوت ساعة أنعم فيها بالراحة وأستمتع فيها بالحياة وأذكرك أيها الصديق . ثم أتهيأ المضى أمامى ولأنقض على لمدنية من هذا المنحدر . فرحاً مرحاً نشيطاً طروباً ، كما ينقض النسر . وهأنذا أمضى وأمضى وأقدر ما سألقى من المناظر وأريد أن

أبلغ أول القناة . قناتنا أتذكرها ؟ أريد أن أبلغ أولها وأن أتبع مجراها أسايره على الشاطىء الجنوبى حتى اذا بلغت ذلك المنحدر الذى تعرفه،ودعتها لحظة وانحدرت الى المدينة لأمر بهذه الأماكن التى كنا نألفها بالدكان ، وببيت أم محمود وبيت زنوبة . ثم أمضى حتى أبلغ شارعكم ولعلى أقف لحظة عند أوله فأتحدث الى بمبة . أتذكر بمبة ؟ تلك التى كانت تسرف فى النوم وتسرف فى الغطيط ويسمع الناس غطيطها فى أكثر ساعات النهار ، وفى كل ساعات الليل ، إذا مروا أمام بيتها الصغير . من يدرى لعلى كنت أقف لحظة عند هذا البيت فأعبث بصاحبته وأسألها عن أصناف الجبن الذى تبيعه وجه النهار ثم ألهو لحظة بابنها الأبله ذى الرأس الغريب،أتذكره ؟ لقد كنا نسميه أبا الرؤوس ، أنه لا يتكلم ولا يسمع ، ولا يكاد يعقل ، من يدرى لعلى كنت الهو به لحظة ثم ألقى فى يده أو فى يد أمه بعض النقد .

ثم أمضى فى شارعكم نحو الشمال فأمر بهذه البيوت التى كثيراً ما نعمت فيها بالجد والهزل ، وأقف عند بيتكم فى هذا

المنعطف الصغير أمام الباب حيث تتدلى أغصان هذه العنبات التي كثيراً ما لعبنا فى ظلها وأكلنا من ثمرها واتخذنا بينها الحدائق والحقول ، ومن يدرى لعلى أجاس على هذه المصطبة الصغيرة عن يمين الباب إذا خرجت من البيت وأذكرك أو أذكر إخوتك فكثيرا ما جلسنا عليها وكثيرا ما لعبنا الطاب .

ومن يدرى لعل الذكرى أن تملأ نفسى وقلبي . أن تنسيني نفسها وأن تخيل الى أنها حاضرة لم تمض ولم تنقض أيامها ولعلى اعتقد انى قد أقبلت لأزوركم ولعلى أطرق الباب وانتظر ان أسمع من ورائه صوتاً معروفا مألوفا يسأل عن الطارق وأنتظر أن يفتح وأن أرى من دونه شخصا معروفا مألوفا يرحب بى ويدعونى الى الدخول . ثم أنظر فأرى شخصا لم أعرفه ولم آلفه يسألني من أنا وماذا أريد فأثوب الى نفسى واستأنف رحلتى وقد مثلت فصلا من حياتى الأولى ووجدت فى التمثيل مثل ما كنت أجد من اللذة حين كانت الحياة حقيقة واقعة .

ثم استأنف رحلتى فأمضى أمامى نحو الشمال حتى أبلغ

هذا المنحدر الذى كنا نتحدر منه بعد أن كنا نقضى ساعات على شاطىء القناة أو فى حديقة جرجس افندى عن شمالنا ، أو فى حديقة المعلم عن يميننا . فأرقى فى هذا المنحدر حتى ألقى القناة فأتابع شاطئها فى طريقى الى المدينة .

وكنت أقدر هذا كله وأقدم لنفسى المتاع بهذا كله وأنا أمضى أمامى ملتمساً مخرج القناة من الإبراهيمية . ولكن ماذا أرى وأين أنا ؟ وأين القناة ؟ إنى لأنظر فاذا الابراهيمية تمتد وتمتد ويجرى فيها الماء هادئاً يحمل الحياة والخصب ولكن شاطئها من ناحية المدينة قد اعتدل واستقام فليس فيه عوج وليست فيه فرجة يخرج منها الماء . أين القناة ؟ لقد كانت تخرج من نحو هذا المكان وكانت تمضى غير بعيد ثم يقام عليها جسر صغير تمر عليه بعض القطارات . ثم تمضى غير بعيد ونمضى معها فنبلغ هذا المنحدر الذى كان ينتهى بنا إلى المدينة . أين القناة ، إنى لا أراها ولا أجد لها أثراً ، وإنما أرى شوارع وأرى دورا تقوم فى هذه الشوارع ، وأرى معالم لم آلفها ، ومناظر لم أرها من قبل . أترانى أخطأت المدينة ؟ ومع ذلك فأنا

أعرفها كما أعرف نفسي.وأستطيع أن أمشي فيها وأهتدي الى مسالكها المختلفة دون أن أفتح عيني كما كنت تمشي فيها انت أيها الصديق لا تحتاج الى أن ترى ولا الى من يهديك الطريق. اين القناة لقد سلكت الى المدينة الطريق التى سلكتها ألف مرة ومرة،فلست أشك فى أنى قد بلغتها.وبلغتها هي دون غيرها من المدن، فماذا أصابها بعدنا ، وأين ذهبت القناة ، إنى لأريد أن أسأل فأجد حياء فى نفسي من السؤال. ولكنى أطيل الوقوف . وأطيل النظر عن يمين وشمال . وأطيل النظر من أمام ومن وراء حتى يخيل إلى وإلى من كان يرانى من الناس أنى أبله قد فقدت الصواب . ثم لا أملك نفسي وإذا أنا أسأل عن المدينة وعن القناة وإذا أنا أسمع ويا شر ما أسمع انى قد بلغت المدينة وان القناة قد ماتت منذ زمن بعيد وان معالم المدينة قد تغيرت منذ هدم معمل السكر ، ماذا اسمع ! معمل السكر قد هدم . وماذا بقى إذن فى المدينة أو ماذا جئت أرى فى المدينة ! ماتت القناة . وهدم معمل السكر ! وغيرت المعالم ! وانتقل أكثر من كنا نعرف فى المدينة من الناس .

يا للحزن والأسى. يا للوعة والحسرة. يا لليأس والقنوط. أيبلغ العنف بالزمان أن يمحو هذا المقدار الضخم من حياة الناس فى أعوام قصار. لقد جد جيل وجيل فى إنشاء معمل السكر وإقامة ما حوله من الدور، بل من القرى. أنفقت قرون، جيل وجيل، بهذا المعمل ولهذا المعمل لقد انتفع جيل وجيل بهذه القناة ومن هذه القناة. فكل هذا الجهد، وكل هذا العناء، وكل هذه الحياة، وكل هذه الذكرى، وكل ما كان على شاطىء القناة وحول معمل السكر من جد وهزل ومن لذة وألم، ومن حب وبغض، ومن أمل ويأس، ومن مكر ونصح، ومن خداع وإخلاص، كل هذا يذهب فى أعوام قصار لا تكاد تبلغ عدد أصابع اليد الواحدة كأن شيئا من هذا لم يكن، وكأن نفساً لم تتأثر بما أثارته الحياة فى هذه الأرض من العواطف، وكأن شفة لم تبتسم لما أنبتته هذه الأرض من مناظر الجمال، وكأن عينا لم تبك لما شهدته هذه الأرض من أسباب الحزن والأسى. يا للحزن اللاذع، ويا للألم الممض ويا لليأس المهلك للنفوس. لقد ماتت قناتنا أيها.

الصديق . ماتت ودفن فيهـــا أو صرف عنها ذلك الإله الشاب من آلهة الأساطير الذى كان ينطلق فيها فرحا مرحا هادئا وادعا مستبشرا يرسل البشر من حوله جميلا يثير الجمال على جانبيه. مات هذا الإله الشاب فدفن فى مجراه أو طرد هذا الاله الشاب ورد عن مجراه ودفن فى الابراهيمية فأصبح ماء من الماء وجرى لا يتميز من غيره ، لا يعرفه أحد ولا يعرف هو أحداً ، لا يثير فى نفوس الناس حزنا ولا فرحاً ولا يجرى ألسنتهم بالحديث ، نسيه الناس ونسى هو الناس ، بل نسى نفسه أيضاً . إنك لتعرف أن آلهة الأساطير لا حياة لهم إلا إذا اقيمت لهم المعابد و قاموا هم فى المعابد فاذا هدمت معابدهم فقد ماتوا أوطردوا من الأرض طرداً فقد هدم معبد هذا الإله الشاب ، وماتت الترعة ماتت هى أو نفيت من الأرض وأصبح حديثا كغيره من الآلهة الذين أصبحوا أحاديث . أتدرى أين أكتب اليك آنى أكتب اليك فى مكان لم يتغير لأن الحضارة لم تدع إلى تغييره ولم تبدل لأن المنفعة لم تأمر بتبديله . ولأن يد الانسان لم تكد تجرأ على أن تمتد اليه . إنى أكتب اليك عند المسجد ،

عند بابه البحرى،أتذكر هذا الباب هو الذى يدخل منه المترفون الذين لا يحتاجون الى أن يمروا بالميضأة لأنهم يتوضأون فى بيوتهم . ولا أن يمروا بالمغطس لأنهم يستحمون فى بيوتهم . أتذكر هذا الباب إنه ينتهى بك إلى قلب المسجد لا الى فنائه ولا الى الصحن المنبسط أمامه . انك اذا دخلت منه لم تكد تخطو خطوات حتى تجد عن يمينك قبر ذلك الغنى الذى بناه . أتذكر هذا الباب ؟ إنك إذا أقبلت عليه وجدت مقعدين من الحجر يكتنفانه عن يمين وشمال فأنا أكتب اليك عند هذا الباب وأكتب اليك قائماً لا قاعداً . وأكتب اليك وقد وضعت القرطاس على أحد هذين المقعدين المرتفعين وقمت أمامه أجرى يدى بما تلقيه هذه النفس الحزينة على هذا القلم الشقى .

لقد أطلت ولكنى لم أحدثك الا بأيسر الحديث ، لقد أطلت ولكنى لم أحدثك عما رأيت ، بل لم أحدثك عما لم أر فأن ما رأيته لا يستحق الحديث وإنما الذى يستحق الحديث هو هذه المعالم التى أقبلت زائراً لها . فلم أر منها عيناً ولا أثراً ،

وسألت عن بعضها فلم أجد بين الناس الذين سألتهم من يعرف لها نبأ أو يروى عنها خبراً . هذه المعالم التى جئت لأراها والتى لم أرها ، هى التى تستحق الحديث . لن أرسل اليك هذا الكتاب حتى اتمه . ولن اتمه الآن . فقد آن لى أن أروح الى قريتنا حيث ينتظرنى الحزن والسخط والبؤس والشقاء .

نعم لن أرسل اليك هذا الكتاب حتى أتمه فما ينبغى أن أحتمل وحدى ثقل هذا الحزن وما أظن أن غيرك وغيرى من الذين نشأوا فى المدينة يحزنهم أن يعلموا بموت القناة أو بتغير ما ألفوا من المعالم أو بتفرق من ألفوا من الناس .

وأكتب اليك الآن من قريتنا وقد بلغتها مع الليل فألهانى ما شهدت فيها بعض الوقت عما كان يملأ نفسى من الحزن والحسرة ، ولو أنك رأيت ما رأيت للهوت كما لهوت . ولما استطعت أن تمنع نفسك من ضحك ينفذ اليه حزن غير قليل . فقد رأيت أهل الدار وقد ملكهم جزع غريب لم يحكموا فيه عقلا ولا روية وإنما اندفعوا فيه اندفاعا . افتقدونى وجه النهار فلم يجدونى وانتظرونى حتى انتصف النهار ، وهم

يظنون أني قد خرجت لبعض ما يخرج له الشباب من النزهة والتماس التروض والعبث فى الحقول. ولكن لم أعد مع الظهر، ولم أعد مع العصر فلم يشك أحد فى أنى لم أخرج لنزهة ولا لتروض، وإنما فررت منهم فراراً. وعدت إلى القاهرة انتظر فيها يوم الرحيل.

وتستطيع أن تصور لنفسك ما ملأ نفس الشيخين من هذا الحزن العنيف الذى يملؤه السخط والغضب، وتملؤه الرقة والرحمة فى وقت واحد. لقد كنت ابنا عاقا يرتحل دون أن يودع أبويه، فكنت خليقا أن أثير السخط والغضب والموجدة ولكني كنت ابنا يرتحل إلى بلد نازح، فكنت أثير الرحمة والحب والحنان وكانت غريبة هذه الدموع التى كانت تنحدر من عينى أمى، لا يعرف الناس أهى دموع الغيظ والحنق أم هى دموع الوجد والحنين. وكانت غريبة هذه الألفاظ التى كانت تنطلق متصلة على لسان أبى، لا يعرف الناس أصدرت عن أب يذكر على ابنه عقوقه وجحوده وقسوة قلبه الغليظ أم صدرت عن أب ينفطر قلبه حزنا لأن

ابنه قد سافر إلى بلد مجهول ، وهو لا يعرف متى يعود ولا كيف يعود .

ثم كانت غريبة هذه العواطف التي ثارت في نفسي حين بلغت الدار فرأيت الشيخين راضيين يظهران السخط ومسرورين يتكلفان الحزن ومبتهجين يتصنعان الاكتئاب . ففي شيء ما إذن عطف عليّ ، وهذا الغضب الذي أراه وأتأذى له ليس إلا مظهراً من مظاهر هذا العطف ، ولونا من ألوان هذا الحب ، وصورة من صور هذا الحنان . وإذن فسأسافر إلى هذا البلد الغريب وأنا واثق بأن الذي سيصحبني في هذا السفر هو الحب والعطف والحنان لا السخط والغضب والموجدة . ولكن خروجي إلى المدينة لم يكن شرا كله وإنما كان فيه بعض خير . فقد محا كثرة ما أثار في نفسي من الآلام الملحة الباقية . فلأول مرة عدت إلى القرية استطعت أن أظفر من أبوي بساعات فيها هدوء وطمأنينة وحديث متصل مختلف كأن عودتي إليهما من هذه الرحلة القصيرة التي انقضت قد ألهتهما عن تلك الرحلة الطويلة التي لم تبتدئ بعد . ولكن

أ كثر حديثنا عن المدينة التى زرتها ، وعما تغير من معالمها ومن تفرق من أهلها . وكان الشيخان يتحدثان إلىّ فى ذلك كله حديثا هادئا مطمئنا يغشـــاه حزن خفيف. وتتردد فيه ذكريات مؤثرة ، ولـكن قوامه الرضى بما كان والسخط على ما هو كائن والأمل فيما سيكون . وكانت أحاديثهما متممة لما رأيت وماعلمت ، ومتممة فى الوقت نفسه لتشييد هذا المعبد الحزين الذى أقمته فى نفسى لهذه الحياة المنقضية ولهذه العهود الماضية ولهذه الذكريات التى ستبقى ما بقيت .

نعم كانت أحاديثهما متممة لتشييد هذا المعبد الحزين الذى أقمته فى نفسى والذى يجب أن تقيم مثله فى نفسك لذلك العهد الذى مضى إلى غير رجعة ومات إلى غير نشور . ولا بد من أن أتم لك ما تم فى نفسى من تشييد هذا البنـاء المظلم الحزين الذى ستتردد فيه الذكريات حائرة مضطربة كما تتردد هذه الطير التى تألف الظلمة فى البيت المظلم الحزين .

وماذا تريد أن أقص عليك من أمر المدينة ؟ لم يبق فيها شىء مما كنت تعرفه وتألفه ، ماتت القناة فمات من حولها كل

شيء ، فأما حديقة المعلم فتستطيع أن تلتمسها فى نفسك واجتهد إن استطعت أن تستحضر مابقى من صورتها وأن تثبته فإنى أخشى أن يعبث الزمان بالصورة كما عبث بالأصل . وأما بيتكم فلن تراه الا فى الخيال يقظان أو فى الحلم نائما . وكذلك هذه البيوت الحسان التى كانت تقوم على شاطىء القناة والتى كنت تحب أن تداعب على أسوارها أغصان اللبلاب والتى كنت تحب أن تدخل بعضها لتتحدث الى محمود وعثمان ، ولتسمع لعزيزة وأمينة . وقد مضى أهلك الى أقصى الصـــعيد ، وهبط أهل عزيزة وأمينة الى القاهرة . فتستطيع أن تلقاهم ان شئت فقد كنا نسمع أنهم كانوا يقيمون فى بولاق قبل أن ينقلهم العمل إلى مدينتنا .

وأنت تعلم من غير شك أن عم حسنين قد انتقل الى السودان بعد أن عصف الموت ببيته فذوى منه غصونا وأذبل زهرات . ولـكنك تجهل أن «حسن كوزو» قد رحل الى عزبة «المكسرين» وأنت لا تعرف عزبة «المكسرين» . فهى قطعة من الأرض منحتها الحكومة لعمال الدائرة السنية الذين عجزوا

عن العمل . فهم يقضون فيها ما بقي لهم من حياة .

وأما سيدنا فقد ارتحل الى حيث لا يؤوب المرتحلون وسبقته حماته الشمطاء ذات اللسان الحاد الذى لم يكن يعرف السكون. واستأنفت زوجه الشابة حياتها سعيدة مع ذلك الذى كان يدور حول بيتها كما كان يدور الأحوص حول بيت أم جعفر . وفقدت عالية أم غريب زوجها الضرير ثم انتقلت مع أبنائها الى حيث لا يعلم أحد . وطارت أم محمود مع غوى من أهل المدينة ، ذهب بها الى حيث لا ينكر الناس عليه غوايته . ولقيت زنوبة من دهرها شرا ونكرا . فخانها زوجها جهرة بعد أن كان يخونها سرا ، وآثر عليها بنت أخيها الفتاة . ثم مضى الدهر فى تنكره لها ومكره بها ففقدت بصرها ، وعاشت أعواما لاترى النور ، ثم رأفت بها الأيام فأخرجتها من هذا العالم الذى لا يكمل الصفو فيه .

أتريد أن تعلم أكثر مما علمت وأن تحزن أكثر مما حزنت؟ فقد هدم الكتاب هدما ، وذهب ما كان حوله من الأشياء ومن كان حوله من الناس .

نعم هدم الكتاب هدما . وما أعرف أن شيئاً مما رأيت أو شيئاً مما لم أر ترك فى نفسى من الآثار المؤلمة والندوب التى ستبقى ما بقيت مثل ما تركه فيها منظر الكتاب المتهدم . فما تزال معالم الكتاب باقية ، على نحو ما كانت تبقى معالم الديار لقدماء الشعراء . فالكتاب الآن طلل تمحوه الأيام شيئاً فشيئاً وتبقى من آثاره الى الآن بقية مؤذية حقا. لقد ماتت القناة عن شمالا وسويت الطريق عن يمينه، ونزع منها ذلك الخط الحديدى الضئيل الذى كانت تمضى عليه تلك القطارات الزراعية الصغيرة تحمل القصب الى معمل السكر أثناء العمل وتحمل التراب والرمل والحصى اذا كان الفيضان لردم هذا المستنقع العظيم الذى كان يؤذى المدينة فى كل عام .

نزع هذا الخط وسويت هذه الطريق وقلت الحركة عن يمين الكتاب وشماله . وعملت معاول الهدم فى الكتاب نفسه وفيما كان يجاوره ويوازيه من البناء . حول دار المأمور فالمنظرة التى كانت تقوم أمام الكتاب والتى كان ينزل فيها أضياف المأمور قد هدمت كما هدم الكتاب . وأصبحت

طللا مثله والبيت الذى كان يقوم وراء الكتاب وتعيش فيه أسرة عم نوح قد هدم كما هدم الكتاب ، وانتثرت هذه الأطلال فى هذا الفضاء انتثاراً محزنا موئسا ، ولكن مكان الكتاب بينها يثير فى النفوس أسى غريبا ولوعة محرقة حقا ، إن أرضه ما زالت مرصوفة بهذه الأحجار التى كان يغسلها التلاميذ مساء الأربعاء من كل أسبوع بعد أن يقرءوا الحزب وأن عتبته ما زالت قائمة ولم تمح جدرانه كلها محواً ، وانما بقى منها شىء يرتفع هنا وينخفض هناك وتستطيع أن تتبين مواضع المقاعد الخشبية التى كانت مسندة الى هذه الجدران والتى كان يجلس سيدنا على أحدها عن يمينك اذا دخلت ويجلس العريف على أحدها الآخر عن شمالك إذا دخلت ويجلس المترفون من التلاميذ على سائرها ثم يختلط بينها الفقراء وأبناء الشعب ، على حصر ممزقة تستر بعض الأرض وتبين عن بعضها الآخر . ولا تكاد تجدد إلا حين تستحيل الى نش لا يكاد يتصل . وحين يجود بعض الأغنياء بما يقوم مقامها .

قل ما شئت وأعجب بالشعر القديم ما أحببت وأحفظ ن وقوف الشعراء على الأطلال ، وبكائهم على الديار وذكرهم

للظاعنين ما استطعت أن تحفظ ، فسيظل هذا كله فى نفسك كلاما أجوف لا يحتوى شيئا ولا يدل على شيء حتى تقف موقفا كالذى وقفته منذ حين بين هذه الأطلال عن يمين وشمال وحتى تذكر ما ذكرت من هذه الحياة القوية ، الغنية الخصبة التى كانت تملؤها الحركة والنشاط وتضطرب فيها الأمانى والآمال ، وتختصر جيلا مضى وتنبيء عن جيل مقبل فذهبت هباء وتفرقت فى الأرض.ولم يبق منها فى هذا المكان الاصدى لايحسه الناس جميعاً . ولا يقدرون وجوده ، وإنما يحسه مثلك ومثلى من الذين اشتركوا فى هذه الحياة وتأثروا بها وملاؤا من صورها النفوس والقلوب . لقد وقفت على الكتاب وقفة طويلة وجعلت أنظر حولى فلا أرى الا هذه الأحجار المتناثرة وامد اذنى فلا أسمع إلا هذا الصدى الذى كان يضطرب فى الفضاء، ولكنى مع ذلك كنت أرى رفاقنـــا جميعاً . وقد أخذوا مجالسهم فى الكتاب . هذا يقرأ . وهذا يسمع ، وهذا يلغو ، وهذا يكتب ، وهذا يلعب . وكنت أحلل هذا الصدى المتردد وأجد فيه هذا اللغط الذى كان يسمع من مكان بعيد فيدل

مسامعه على مكان الكتاب ، ولولا أنى ما زلت محتفظا ببقية
من إرادة ، وفضـــل من القدرة على ضبط النفس لجننت
ولتحدثت الى هؤلاء الأشخاص الذين كنت أراهم يجرون
ويلعبون ، ولشاركتهم فى الجرى واللعب ، لا أخفى عليك انى
ملكت نفسى فلم يذهب بها الجنون ولكنى لم أملك عينى ،
ففاضت منهما الدموع . هممت أن أمضى ولكنى لم أسلك
الطريق العامة حيث كان يمتد الخط الحديدى ، وإنما هممت
أن أمضى نحو بيت المأمور ، فما راعنى الا النخلتان اللتان
كانتا تقومان بين الكتاب وبيت نوح وإذا هما قائمتان كعهدهما
تبسطان ما كانتا تبسطانه من الظل ، وتحملان ما تعودتا حمله
من التمر الذى لم يتم نضجه بعد ، وتلقيان ما كانتا تلقيان من
بعض هذا التمر الذى كنا نلتقطه فنعبث به ثم كنا نلتقطه
فنأكله إذا قارب النضج ثم كنا نزدحم عليه ونتنافس فيه اذا
تم نضجه ، وما زالت النخلتان قائمتين بين هـذه الأطلال
المتهدمة ولكنهما قد فقدتا ما كانتا تبعثان من بهجة وظهرت
عليهما كآبة عميقة حزينة مثيرة لليأس كأنهما تجدان الوحشة

فى هذا المكان الذى خلا بعد عمران ، ومات بعد حياة .

لقد وقفت عند هاتين النخلتين لحظة ماأعرف أنى قضيت مثلها ، ولقد ذقت فى هذه اللحظة من لذة الذكرى وألم الحسرة مالاأعرف أنى ذقت مثله قط وانى لأذكر الآن هاتين النخلتين فأمنحهما حبا ومودة وأهزأ بهذا الامتحان الذى أخضعكم له ذات يوم أستاذ من أساتذتكم فى الجامعة حين ذكر حلوان ثم استطرد الى نخلتى حلوان ثم كلفكم أن تبحثوا عن هاتين النخلتين أين كانتا وماذا قيل فيهما من الشعر ومن ذا تغنى بهما من الشعراء . لقد أجهدت نفسك فى البحث ولقد كنت تعجب بشعر مطيع فى هاتين النخلتين، ولقد كتبت كلاما كثيرا عما عرفت من أمر هاتين النخلتين ولقد كنت راضيا عن نفسك لان الأستاذ كان راضيا عنك، ولكن ماذا تركت نخلتا مطيع فى نفسك من أثر ، وماذا بعثتا فى قلبك من عاطفة . إنما هو كلام يروى ثم يثير فى أنفسكم العجب والتيه والغرور أكثر مما يثير فيها الشعور الصادق بالجمال الصادق . أسرع أيها الصديق الى مدينتنا فألمم بها يوماً أو بعض يوم قبل أن تمحى

معالم الكتاب محوا، وقبل أن تجتث النخلتان اجتثاثا، وقبل أن تتم الحضارة عماراتها الشاهقة. على هذه القبور العزيزة التى دفنا فيها الصبى، وما كان يملؤه من الفرح والمرح ومن الحياة والنشاط. أسرع إلى النخلتين فاجلس إليهما واستظل بظلهما ثم أنشد شعر مطيع، فستفهمه وستتذوقه وستشعر بما يصور من الحزن كما شعر به مطيع نفسه.

ليت الأيام تتيح لى أن أحقق أمنية تضطرب فى نفسى فاجمع نفرًا من رفاقنا ونقصد إلى الكتاب وإلى ما حوله من الأطلال وإلى النخلتين فننظر ونسمع ونجلس ونتحدث ونحيى عهدنا القديم ساعة أو بعض ساعة.

لست أدرى أتقرأ هذا الكتاب الطويل أم تضيق به، وتشفق من طوله، وتكره أن تنفق فى قراءته من وقتك ما أنت فى حاجة إليه، لتستعد لدرس من الدروس، أو لتقرأ فى كتاب من الكتب، أو لتحفظ من بعض الدواوين، ولكنى لم أكن أستطيع أن أكتب إليك أقصر مما كتبت. ولولا إشفاقى عليك ورثائى لك لكتبت إليك أطول مما كتبت فقد

تقدم الليل حتى تجاوز نصفه ، فكل شيء ساكن من حولى إلا هذه الأصـــوات التى تبلغنى من حين إلى حين ، أصوات الخفراء حين يتنادون أو أصوات الديكة ، حين يخدعها بعض ما يخدع الديكة ، فتحسب أن الفجر قد لاح ، فتصدح بندائها العذب لتلقاه بالتحية ولتنبئ الناس بمطلعه . ثم تعلم بعد ذلك أنها قد خدعت ، أو هى لا تعلم شيئا وإنما يمضى بها النوم فى أمواجه المتصلة المتلاطمة فتعود إلى الصمت وتغرق فيه . ولعلى أجرد نفسى من خواطرها،وأسلها مما حولها سلا ، وأعلقها فى هذا السكون تعليقا ، فأسمع أصداء تتردد ويدعو بعضها بعضا ويجيب بعضها بعضا وتصور لى ذلك الصدى الذى كنت أسمعه فى الكتاب ثم أريد أن أحلل هذه الأصداء وأردها إلى أصولها ، وأتخذ لها أشخاصا أحياء ، فيخيل إلىّ أنها نفوس الأجيال التى سكنت قريتنا على اتصال الزمن ويخيل إلىّ أن أجسام الناس والحيوان والأشياء هى وحدها التى تزول ، وهى وحدها التى تتغير ، وهى وحدها التى تبرح الأرض . فأما نفوس الناس والحيوان والأشياء فمتصلة

بالأرض لا تبرحها، مضطربة في الجو لا تفارقه ولا تزول
عنه، وإنما هي تماؤه حياة لا تشعر بها الأحياء إلا إذا سألوا
أنفسهم من الموت بلا. وعادتها أن تكون الليل تعلمنا، اتقد
نقدم الليل حتى جاوز ... ... ولقد سكن من
حولي كل شي، وأنا لا أسمع دعوة نوم ولا أحس مقدمه
ولا أرغب فيه، وإنما أنا حريص الحرص على أن أبقى ...
هذه ... أتحدث ... وأسمع منها حين ... موصولا
لما أجد هذا الكتاب ... من حديث ... أن ...
... أنا أثق ... يحدثني، ولولا أن
... الدار ...
في الفضاء، وأنا أكره أن يدخل ...
اللص. وأحب أن أبقى ...
وقلبي ... في ضوئه ...
لا أستطيع أن ...
الحزن والأسى ...
... على ... أملا

... ي و... ... ... مما أحببت و... ألفت، وأنا سأحمل
... حيث ... من أ... وراء البحر، فلم أجد شيئا
و... ... ... أيام. ثم أرحل عن مصر بعد
... أ... ... لا أ... إلا ... ونخلتين قائمتين
... ... من حولها. ما أكثر ما
... أ... ... ... وما أكثر ما يعبث بنا من
الأم... .
... ...

*

وأنا أعترف أني ... هذا الذي هو أشبه بالسفر منه
بال... ... شيء ... ف... ... طوله، ولكني
... ... ، واختلافه وكثرة
الإ... ... ... ولم أعرف ما فيه حتى
فرغت له ... ... ، و... لم أحس له من الأثر مثل
ما أحسست له حين ... قراءته في هذه الأيام. و...
لأ... ... صديق و... ... أشد ... فقد كنت أقدر
الذكر... وآ... ... وأ... الحديث عن العهود القديمة

ولكنى لم أكن أكلف بهذه العهود ولا أحفل بها ولا آسى عليها .

ولعلى كنت مدفوعاً إلى أن أسخر منها سخرا غير قليل ، فقد كنت مفتونا بحياتى فى القاهرة راضيا عما كنت أتلقاه كل يوم من جديد الأمر ، مبتهجا بما كانت تتفتح له نفسى كل ساعة من العلم . وكان هـذا النشاط العقلى يبهرنى ، ويسحرنى ويدفعنى إلى طور من أطوار الحياة يشبه أن يكون سكرا متصلا . وكان تذكر العهود القديمة يؤذينى لأنه يخرجنى من هذه الحياة اللذيذة بعض الشيء ، ويردنى إلى تلك الحياة التى طالما ضقت بها أيام كنت صبيا ناشئا فى الريف . فلم أحفل بالقناة ولا بموتها ، ولم أحفل بالخط الحديدى ولا بانتزاعه، ولم أكترث للكتاب ولم أعرف للنخلتين خطـــرا . وما قيمة الكتاب وما قيمة النخلتين ولم يقل أحد فى الكتاب ولا فى النخلتين شعرا ، ولم يتحدث كتاب قديم عن الكتاب ولا عن النخلتين ولا عن القناة ، ولا عن الخط الحديدى ، ولا عن معمل السكر . والله عز وجل قادر على أن يغفر لى الخطيئة

ويعفو لى عن الذنب ، ويتجاوز لى عن السيئة ، فقد لقيت ما أنبأنى به صديق من موت سيدنا بشىء من الابتسام وهز الكتفين. أما الآن فأنى آقرأهذا الكتاب فأرانى مع صديق متلمساً أصل القناة باحثا عما ألفنا من الأحياء والأشياء،حزينا ملتاعاً بل يائسا قانطا ، أما الآن فانى أقرأ هذا الكتاب فأسأل نفسى أين ذهب الكتاب والنخلتان ، وما ذا قام فى ذلك المكان ، الذى قضينا فيه شطرا من حياتنا لعله خير ما أتيح لنا أن نحيا .

— ٨ —

إذا لم يكن إلا الاسنة مركبا
فلا رأى للمضطر إلا ركوبها

ألقى هذا البيت بصوته الغليظ ومد قافيته مدا طويلا . وهو يضرب الأرض بعصاه،ويلقى طربوشه على مائدة كانت أمامى ثم جلس لم يبدأنى بتحية،ولم ينتظر أن أردها عليه،وكأنه إعتقد أن هذا البيت الذى ألقاه على هذا النحو خير تحية يمكنه

أن يهديها إلى، وأن دهشى لمقدمه، وذعرى لصوته، وانتظارى لتفسير هذا البيت، والإبانة عما أراد به، خير رد عليه، وأكبر الظن أنه لم يكن يرى التحية وأرد عليها إلا لونا من تنبيه القادم إلى مقدمه وتنبيه المقيم إلى أن أحداً قد أقبل عليه، وما دام هو قد بلغ من ذلك ما كان يريد فليس عليه بأس من أن يسند عصاه ويتخفف من طربوشه ويجلس إلى المائدة التى كنت أجلس إليها مائلاً الجزء بضحكه العريض كما تعود أن يفعل كلما أتى شيئاً غريباً. ثم يرفع صوته بهذه الجملة التى يمتلىء بها بيتنا الصغير كله، هات الشاى يا غلام،

ثم يستريح قليلا من الحركة ومن الكلام ثم يستأنف حديثه من حيث انتهى. وهو إنما انتهى عند إنشاد البيت فيقول والألسنة عند يا سيدى من هذه الزيارات التى سننفق فيها آخر النهار، وأول الليل، حتى إذا ملأنا آذاننا من لغو الناس، وملأنا آذانهم من لغونا، وقلنا ما لا نعتقد، وسمعنا من الناس ما لا يعتقدون، وشهد بعضنا من الكذب على بعض. انصرفنا إلى خلوتنا تلك فى أعلى الربوة فغرضنا لجدنا الذى

-تقنا له، وأخذنا منه بحظ موفور قبل أن يفرق بيننا الرحيل،
وأظن انك لن تنهني في أن نبدأ زياراتنا بشيخك الأديب،
فإني ... أحب ... ولست أدرى أيحبني أم يبغضني،
ولكني ... أحبه ... أني أريد أن أراه
... وأني أريد أن يكون ذلك في هذا المساء،
... والخير أن
... الآن ... لا تعود إلى بيتك
... مدينة القــــاهرة
... وما أحب أن
... أو أن تعلل بهذه التعلات
... ما أريد مهما تكن
... ولولا أني نهضت وأتيت
... غرفة وما فيها لما
انقطع ... وما كف هذا
... عن الانهمار. ولكنه رآني قائماً أتحول إلى
باب الغرفة وقد رفعت يدي كأنما أريد أن أضعهما على أذني

فأغرق فى الضحك، ثم ردنى إلى مكانى وهو يقول: لك ما تريد فسأبلعك ريقك، فقد يخيل إلىّ أنى منذ أقبلت لم أرحك، ولم أرح نفسى من الكلام، ولكن لا تلمنى فى هذا ولم غلامك هذا الأسود الصغير، فلو أنه أسرع بالشـــاى وشغلنى به وببعض ما يصحبه من الطعام، لانصرفت اليه بعض الشيء عن هذا الكلام المتصل»

ثم صمت متكرها وتعجلت خادمى فجاءه بما كان يريد، واستطعت أن أتحدث اليه، وأن أسمع منه كما يتحدث بعض الناس إلى بعض فى هدوء واطمئنـــان وشىء من الرزانة والتفكير.

ولم أشك مع ذلك فى أنه كان مضطرب النفس، شديد الاضطراب مدفوع القلب إلى ثورة عنيفة لا يعرف منها مخرجا ولا ينتهى منها إلى قرار. فقد أخذت أتعلل عليه وأظهر كراهة الخروج، ثم أقيم الدليل إثر الدليل على أنى إن خرجت فلا بد من أن أسرع إلى العودة لأنى لا أستطيع السهر فى هذه الليلة. كان كلما سمع منى تعلة محاها محواً، وكلما

يسمع منى دليلا نقضه نقضا ، حتى إذا أعيـــاه ذلك وضاق بهذا التمنع الطويل، نهض كالمغضب وخرج من الغرفة واندفع إلى الغرفة التى كان أخى قد خلا فيها الى بعض كتبه ، فدفع بابها دفعاً ولم يكد يجد أخى حتى أنبأه بأنه سيصطحبنى فى بعض الزيارات ثم سيقضى معى أكثر الليل أو كله فى حديث طويل ذى بال وخيره ضاحكا صاخبا بين أن يكون هذا الحديث الطويل الخطير هنا فى هذه الغرفة أمام غرفته أو هناك فى بيته البعيد على تلك الربوة مما يلى القلعة .

وكان أخى أشد الناس ضيقا بالناس، وأكثرهم نفوراً من الزيارة والزائرين ، وأشدهم بغضا لهذا النوع من الحديث الطويل ذى البال ، الذى يظن أصحابه أن له خطراً . وإنما هو وسيلة من وسائل قتل الوقت . والانصراف عما ينبغى للطالب الجاد من درس وتحصيل . فلم يكد يسمع حديث صاحبى حتى أجابه متعجلا أن أخرجه معك متى شئت وأعده متى أحببت فلست أطلب اليك ولا اليه الا أن تريحانى من لغوكما الذى لاحد له فأخى يعلم . ولعلك تعلم أيضا . أنى غارق فى الاستعداد

للامتحان . قال ذلك وأعرض عنه إلى كتبه فعـــاد إليّ جذلان مبتهجا وهو يقول لم تبق لك حجة وإنما أنت منذ الآن ملك لى ، فلا بد مما ليس منه بد .

ولم يكن بد من أن أذعن له . وأنزل على حكمه وأطوف معه فى بعض أحياء القاهرة نزور هذا الماماً ونزور ذاك فنطيل عنده الإقامة ، وهو فى أثناء هذه الزيارات وفى أثناء الطريق التى كنا نقطعها من بيت إلى بيت ، مندفع فى مزاح لا ينقطع بصوت مرتفع كثيراً ما كان يلفت الينـا الناس ، وكثيراً ما كان يحملنى على أن ألح عليه فى أن يخفض منه بعض الشيء وعلى أن أقسم له أنى لست أصم وإنى أسمع همسه فضلا عن حديثه المعتدل . وأن أحتج له على أن الناس ليسوا فى حاجة ولسنا نحن فى حاجة إلى أن يشاركونا فيما نأخذ فيه من عبث وجد . وكثيراً ما أضطر أصدقاؤنا الذين زرناهم إلى أن يظهروا الضيق بصوته المرتفع الذى لا يخفى شيئا ، ولاسيما هذا المزاح الغليظ المسرف فى الحرية الذى كان يرتفع به صوته حتى يخشى أصحاب الدور أن يبلغ النوافذ وأن ينتهى إلى آذان

لا ينبغي أن ينتهي إليها ، ومهما يكن من شيء فقد كانت صحبتي له هذا المساء ، لذيذة حقا متعبة حقا ، كانت لذيذة لهذه الفنون المختلفة التي كان يطرقها في أحاديثه المتصلة ، ينتقل من بعضها إلى بعض في غير تمهيد ، ولا تنبيه ولا مناسبة ، وإنمـــا هو الاستطراد، والاستطراد كما يفهمه هو لا كما تفهمه أنت. ولا كما أفهمه أنا، معتمداً على هذه المناسبات الظاهرة التي تدعو إلى الشرح والتفسير . وتبيح الانتقال من موضوع إلى موضوع ، وإنما هي مناسبات خفية كان يجدها هو ولم نكن نجدها نحن . فكان استطراده من موضوع إلى موضوع ، أشبه شيء بالوثوب والقفز من شاطيء القناة إلى شاطئها الآخر دون اصطناع جسر أو شيء يشبـــه الجسر . وكنا نجد في استطراده هذا ما يلهي ويضحك ويعجب . وكنا نقدر دائما أنه إذا وثب من موضوع إلى موضوع أو قفز من حديث إلى حديث ، فإن يعود إلى الموضوع الذي وثب منه ولا إلى الحديث الذي تجاوزه ، ولكنه كان يقهرنا دائما فلا ينسيه موضوع موضوعاً ولا يشغله حديث عن حديث ، ومن أجل هذا استحالت

اللذة التى كنا نجدها فى الاستماع له إلى تعب مضن للعقل، منهك للقوى. ويكفى أن تتصور رجلا يسير بك أو يعدو بك فى طريق ثم لا يلبث أن يعدل بك إلى طريق أخرى ثم لا يلبث أن يردك إلى الطريق الأولى فيعدل بك إلى طريق ثالثة، وهو يمضى فى ذلك جاهدا متصل الجهـــد، لا يريح ولا يستريح. فأنت واجد فى هذا لذة، وأنت مستقبله بالنشاط والمرح ولكنك لا تلبث أن يدركك الإعياء والسأم وأنت تتمنى على صاحبك أن يعفيك من هذا الاضطراب أو يمضى بك على صراط مستقيم.

وكم تمنينا وكم ألححنا فى التمنى، ولكن عقل صاحبى كان قد ركب على هذا النحو، فلم يكن يستطيع أن يمضى أمامه فى تفكير أو روية أو حديث دون أن ينحرف يمينا أو شمالا ثم يعود إلى طريقه الأولى ليعود إلى الانحراف عنها. ومن يدرى لعل الحياة الواقعة ولعل الحقائق أو الأمور المعقولة التى تعمل فيها عقول الناس لا تستقيم ولا تسمح بأن يستقيم التفكير فيها، وإنما هى تنحرف وتعوج وتلتوى وتكره

العقول على أن تسايرها فى الانحراف والاعوجاج والالتواء، ولعل عقولنا نحن أوساط الناس يسيرة ساذجة ليست تامة التكوين ولا كاملة الأداة ، فهى ترى الأشياء سهلة ميسرة، وتسلك فى التفكير طرقا معتدلة مستقيمة ، وتتعب من الانحراف والالتواء،أى من التفكير الصحيح. ومهما يكن من شيء فقد كان هذا الاستطراد المتعب لازمة من لوازم صاحبي إذا فكر أو كتب أو تحدث . فإذا أضفت إلى هذا صوته الذى لم يكن يعرف الخفوت ولا يحب الهمس وإذا أضفت إلى هذا أنه صمم فى هذا المساء على ألا نركب عربة ولا نتخذ تراما ولا نستعين بأداة من أدوات الانتقال مهما تبعد بنا الطريق لأنه قد أزمع أن نجن فى هذا المساء . وكان الجنون عنده أن نهيم فى الأرض حتى إذا أجهدنا المشى ، استرحنا لحظة ثم استأنفنا الهيام حتى ينتهى بنا الإعياء الى أقصاه . أقول إذا لاحظت هذا كله،وأضفت بعضه الى بعض لم تشك فى أنى كنت متعبا مكدودا حين بلغنا منزله فى أعلا الربوة مما يلى القلعة وقد تقدم الليل . وليس من جدال فى أنى

لو ملكت يدى و نفسى كما يقول الفرزدق لتخلفت عن مرافقته، ولتركته فى بعض الطريق ولكنه قد احتاط لذلك عامداً أو غير عامد . فأبى علىّ ان أصطحب غلامى الأسود الصغير ، وقال أرفق به ودعه يسترح ولعل أخاك أن يحتاج اليه وما دمت ستنفق الليل معى ، وما دمت سأردك إلى بيتك مع الضحى فلسنا فى حاجة إلى رقيب يسمع ما نقول ،أو يحصى ما نهذى به . وقد لا نكون فى حاجة إلى أن نسمع غطيطه حين يطول عليه حديثنا،ويثقل عليه سهرنا فيأخذه نومه العميق، ويهوى به عن كرسيه إلى الأرض كما كان ذلك ليلة كنا نطيل الحوار فى بعض قضايا المنطق التى كنت تراها واضحة كل الوضوح، وكنت أراها أنا غامضة كل الغموض .

واستطاع على هذا النحو أن يخرجنى من غير خادمى،وأن يحتكم فى أذنى وفى رأسى وفى رجلى كما أراد . حتى إذا انتهى بى إلى داره نحو منتصف الليل كنت محطما أو كالمحطم،وكنت لا أتمنى إلا مجلسا أستريح اليه من هذا العناء ، وكنت واثقاً أنى لن أبلغ غرفته الحرام ولن أجلس على ذلك المجلس من

الخشب تغطيه الوسائد، حتى أنثنى على أحد جنبي واستسلم للنوم.

ولكنه لم يمكني حتى من هذا، فما كاد بابه يفتح لنا، وما كادت خادمته تهدينا بمصباحها الضئيل الى غرفته الحرام حتى أقبلت بما عندها. وليتها لم تفعل. فقد أقبلت بإبريق الشاى ومن حوله قطع من فطير الريف. وأقبل هو على الشاى يصبه فى الأكواب وهو يقول فى صوت ماكر: هذا هو الشاى الذى تعتمدون عليه فى إنفاق الليالى البيض حين يطلب اليكم الدرس ألا تناموا. والدرس يا سيدى يطلب الينا فى هذه الليلة ألا تنام، فاشرب من هذا الشاى واستعن عليه بهذا الفطير حتى اذا أخذت من الراحة والغذاء والرى بنصيب أخذنا فى درسنا المعضل العويص.

وقد كنت متعبا مكدودا ولكنى كنت جائعا ظمآن أيضا. فلم أجد قدرة عن الامتناع عن أخذ ما كان يقدم إلىّ من طعامه الثقيل، وشرابه الذائد للنوم. وأقبل هو على ما حملت الفتاة، فأصاب منه فى غير رفق ولا اقتصاد حتى إذا أحس أن

معدته قد استقرت فى جوفه ، وأن أعصابه قد تنبهت بعد الخمود، أخذ فى حديثه الذى كان يقدم بين يديه بهذه المقدمات الطوال الثقال التى كانت تلتوى بنا وتحملنا ألوان العناء منذ العصر . وكان انتهاؤه الى الأخذ فى هذا الحديث بعد الجهد الذى لقينا ، والمشقة التى احتملنا ساعات متصلة أشبه شىء بخلاص الأم بعد أن ثقل عليها الوضع ، وابتلاها بالآلام المضنية المنهكة .وكان صوته وهو يأخذ فى هذا الحديث هادئا يحاول الرقة وتجرى فيه عذوبة مؤلمة بعض الشىء كأنه صوت المريض وهو يخرج من المرض أو يدخل فيـــه قال أتعلم فيم أرقتك الليلة وكلفتك ما كلفتك من هذه الأهوال التى لم تكن تنتظرها ولا تحب أن تلقاها. قلت لا وإنى لأنتظر أن أعلم ذلك منـــذ عزمت علىّ فى الخروج معك ، ولو أنك استمعت لى وأردت بى الراحة، لألقيت إلى حديثك منذ خرجنا ولأرحت نفسك وأرحتنى من هذا العنـاء الطويل . قال لم يكن ذلك يستقيم يا سيدى فلكل شىء موعده وإبانه . وهذا الحديث لا يصلح له إلا الليل إذا تقدم وتجاوز نصفه

وغمر كل شيء بهدوئه العميق . على أن جهدك لن يذهب عبثاً ، فإني أعرفك تحب المسائل المعضلة ، وتجد في حل المشكلات لذة ، فإليك مسألة معضلة فواجهها كما تعودت أن تواجه مسائل المنطق والفلسفة والأصول . أيهما أهون أن يحتمل: الظلم أم الكذب ؟ ولست أخفي عليك أيها القارىء أني وجمت حين سمعت هذه المسألة . ولم أستطع أن أسرع إلى الإجابة عليها . وظن هو أني أفكر فأمهلني لحظة ثم سألني عن رأيي فقلت لا أدرى لأني لا أفهم معنى للسؤال ، فالظلم قبيح ، والكذب قبيح والخير للرجل الكريم الفاضل أن يتجنبهما معا . قال فإن لم يكن له بد من أحدهما . قلت دعني من الأمور العامة ، وألق الى حديثك في صراحة ووضوح فلعلي أفهم عنك ولعلي أستطيع أن أرد عليك . قال في ضحك هادىء يظهر أنك فاتر عن الفلسفة منذ الليلة . فلنواجه مشكلتنا من طريق غير طريق الفلسفة . ولانبئك قبل كل شيء بأني إنما أرقت وأرقتك معي هذه الليلة لأني سأصبح بطلا قبل أن ينتصف نهار الغـــد . وأنا لا أريد أن أنتظر البطولة نائما

ولا غافلا ،وإنما أريد أن أنتظرها يقظان ، وأن آخذلها أهبتها وأستعد لها كما يستعد الناس لعظام الأمور . وأنا أعلم أنك ضيق بي وبهذا الكلام الذى لا ينقضي والذى لا يفصح عن معناه ، ولكني أقسم لك جاهدا أني لا أمزح ولا أهذى ولا أريدالعبث وإنما أسوق اليك حديثا كله حق وصدق وصواب . فلن ينتصف نهار الغد حتى أكون قد بدأت بطولتي وأقدمت على عمل ذى بال .ولست أزعم أني سأكون بطلا من طراز الاسكندر أو قيصر ، ولكني سأكون بطلا على كل حال ، سأكون بطلا لقصة من القصص ، لتكن تمثيلا أو لتكن قصصا مرسلا ، ولكني سأكتب الصفحة الأولى منها قبل أن ينتصف النهار غدا

وكان يمضي في حديثه هذا مستأنيا متثبتا حتى أخذت أسأل نفسي أمجنون هو ، ولكنه أسرع فردني إلى شيء من الاطمئنان .قال أتعرف أن نظام الجامعة يقضي على أعضائها ألا يتزوجوا حتى يعودوا من أوروبا . قلت نعم . قال ألم يخطر لك أن هذه القاعدة قد تؤذيني وتضطرني إلى بعض

الحرج . قلت وما أنت وهذه القاعدة ـ قال فأنت تجهل إذن أنى زوج . وهنا ظهر علىّ دهش صادق لأنى كنت أجهل ان لصاحبي زوجا،وما كان يخطر لى أن صاحبي يستطيع أن يحيا حياة الأزواج . وما كان يخطر لى أن امرأة تستطيع أن تحتمل الحياة معه مهما يكن حظها من الصبر والحلم ومن العفو والقدرة على الاحتمال . وما كنت أستطيع أن أتصوره إلا رجلا مضطرب الحياة ظاهر اضطراب التفكير ولكن قوة عقله وسعة علمه وذكاء قلبه هى التى تضطره إلى هذا الاضطراب، وتظهره فى هذا الاختلاط . وكنت أرى أنه يقضى نهاره كما رأيته يقضيه يعمل فى ديوانه قليلا ويلغو مع الناس كثيراً . ويحيا حياة خفية قوية متصلة قيمة الإنتاج وينفق الليل بين القراءة والنوم .

فلما رأى ما ظهر علىّ من الدهش والإنكار أغرق فى الضحك . وقال لقد كنت تظننى طالبا مثلك أحيا حياة الطلاب ولكنك تعلم أنى موظف وأن لى بيتا كبيرا وأنى من أسرة غنية من أسر الريف . فكيف لم يخطر لك أنى

لم أكن أستطيع أن أستكمل ما ينبغى لمثلى من الحياة إلا إذا اتخذت لى زوجا . مهما يكن من شىء يا سيدى فأنا متزوج وقد ظفرت بالنجاح فى امتحان الجامعة ولا بد من أن أمضى العقد إذا كان النهار، ومن أصول هذا العقد ألا أكون متزوجا، وألا أتزوج حتى أعود. فأنا إذن مضطر إلى احدى اثنتين. إما أن أكذب على الجامعة وأتورط فى التزوير وأتعرض لما يقتضيه الكذب والتزوير من الشر إن ظهر أمرهما . وإما ان أظلم امرأتى فأطلقها ، فماذا ترى؟ وكيف المخرج من هذه المشكلة ؟ وأحب أن تعترف قبل كل شىء بأنها مشكلة معضلة حقا ، وبأنها خليقة أن تكلفك ما كلفتك من الجهد ، وتحملك ما حملتك من العناء ، وتؤرقك مع صديقك ليلة كاملة . قلت فدعنا من الهزل ومن لغو الحديث واستقبل هذه المشكلة العنيفة بما ينبغى لها من الحزم والعزم ومن الروية والأناة . قال فإنى أنفقت وقتا غير قصير فى الروية والأناة ، وأنفقت جهدا غير يسير فى التماس الحزم والعزم ، وقد كاد ينتهى ما أملك من الوقت ، وقد انتهى ما كنت أملك من الجهد ،

ومن أجل هذا دعوتك لأستعين بك على الخروج من هذا الحرج الذى لا أدرى كيف يكون الخروج منه ، إن من اليسير أن أزعم للجامعة اذا كان الصباح أنى أعزب وأن أرسل امرأتى إلى الريف لتقيم فيـــه حتى اعود اليها ان أتيحت لى العودة . وما أظن أن هذا الكذب سيظهر ، وما احسب أنه ان ظهر استتبع عواقب ذات خطر ، فماذا يعنى الجامعة من أمرى إن عرفت أنى متزوج وأنى قد كذبت عليها ما دمت لا اصطحب زوجى إلى حيث يجب أن أفرغ للدرس ، ومادمت سأجعل بينها وبينى هذه الآماد البعيدة فى البر والبحر . وقد يكون هذا الكذب مرذولا وقد يكون منافيا لأخلاق الذين يريدون ان يحيوا حياة العلماء ، ولكنى لن أكذب رغبة فى الكذب ، ولا تعلقا به ، ولا حرصا عليه ولا إيثارا لغش الجامعة وتضليلها . وانما أكذب ان كذبت رغبة فى العلم وتهالكا عليه وحرصا على أن أغير حياتى وأجعل لها معنى وقيمة وخطرا وأثرا فى منفعة الوطن . والكذب مرذول إلا أن ينتهى إلى نفع وإلى نفع صحيح ، وأن يحقق مصلحة

ومصلحة قيمة ، فماذا ترى ؟ أليس هذا الكذب خيرا من الظلم الذى أقدم عليه إن طلقت امرأتى مع أنها لم تأت ذنبا ولم تقترف إثما ولم تدفعنى إلى هذه الرحلة بل كرهتها أشد الكره، ولكنها لم تصرفنى عنها لأنها تؤمن بأنى لا أعزم إلا بعد تفكير صادق ، وانتهاء الى رأى مصيب. وما أظنك تقترح على أن أصدق الجامعة وأظهرها على جلية الأمر . فانى إن فعلت لم يكن لهذا من أثر إلا أن تخيب آمالى كلها ، وأن استيئس من رحلتى . وأطمئن إلى هذه الحياة الخاملة الذابلة التى لا نفع فيها ولا غناء . وأنا أعلم حق العلم أنى لا أملك هذه الشجاعة ولا أحتمل هذه الحياة وأنى إن صرفت عن هذه الرحلة بعد أن مدت لى أسبابها وهيئت لى وسائلها ميت من غير شك . ميت بالمعنى الصحيح الواضح لهذه الكلمة ، سأقتل نفسى إن ملكنى الغضب ، وسيقتلنى الحزن واليأس إن أتيح لى الصبر والاحتمال . فألغ هذا الفرض إلغاءً وامحه محوا فليس لى بد من أن أكذب على الجامعة أو من أن أطلق امرأتى لأكون صادقا فاختر لى وأشر علىّ .

قلت وقد أنسيت كل ما كنت أجد من تعب وجهد ، وأنسيت الوقت وأنسيت المكان الذى أنا فيه ، وشاقنى علاج هذه المشكلة حتى ملك على أمرى كله ، وحتى أحسست كلفا بالأخذ والرد والحوار ما أحسسته قط فى درس من دروس العلم ، وقد لا يحسه شباب هذا الجيل الذى تعود الاستماع لمثل هذه المحاورات ، والاطلاع على مثل هذه المشكلات بعد أن اتسعت حياتنا وبعدت آفاقنا العقلية واشتد اتصالنا بالحضارة الغربية وقرأنا من أدبها وفلسفتها الشىء الكثير . قلت فانى لا أرى لك الظلم بحال من الأحوال ، ولا أفهم أن تحمل امرأتك ذنبا لم تجنه ولا أن تحمل نفسك هذا الإثم الثقيل ومع ذلك فانى لا أرضى لك الكذب ولا أعينك عليه ولا آمن عليك شره وآثاره السيئة . قال متضاحكا فأنت إذن ترضى لى أن أموت . قلت بل أرضى لك أن تكون رجلا وأن تؤمن بما تلح فى الدعوة إلى الايمان به ، من أن ظروف الحياة أقوى من إرادة الانسان ومن أن المثل القديم لم يعد الحق حين قال لابد مما ليس منه بد . ومن يدرى لعلك تستطيع أن

تصور للجامعة أمرك كما هو وأن تحملها على أن ترضى منك هذا الزواج الذى لن يكون له فى حياتك الدراسية أثر كما قلت آنفا . قال فانك تعلم حق العلم أن الجامعة لن تغير نظامها من أجلى ، وأنى لم أنجح وحدى فى الامتحان ، وأن من ورائى اثنين يودان لو تقطعت بى الأسباب عن هذه الرحلة ليفوز بها أحدهما من دونى . فأنا إن صدقت الجامعة . مضح برحلتى من غير شك وإذا حيل بينى وبين هذه الرحلة فقد حيل بينى وبين الحياة واتصلت بى أسباب الموت فليس إلى هذا الصدق من سبيل . وأنت تخطىء إن ظننت أنه تحمس الشباب أو أنه التعجل والتقصير فى التفكير ، فأنا أعرف نظام الجامعة هذا قبل أن أقدم على الامتحان ، وأنا أفكر فيه منذ أعلنت الجامعة حاجتها إلى هذه البعثة ، ومنذ ظهرت نتيجة الامتحان خاصة . فليس إلى هذا الصدق الذى تطلبه من سبيل . لن أعدل عن الرحلة ولن أصارح الجامعة بجلية الأمر . قلت وإذن ففيم تستشيرنى وقد أجمعت أمرك ووطنت نفسك على الكذب . قال كلا ياسيدى لم أوطن نفسى على الكذب ولو قد وطنت

نفسي عليه لأمعنت فيه ولأخفيت جلية الأمر عليك ولاجتهدت فى إخفائها على نفسى، ولكنى قد وطنت نفسى على الظلم، فأنا أريد أن أكون صادقا، حين أتحدث إلى الجامعة، إذا كان الصباح، وأن أكون ظالما لنفسى ولامرأتى. قلت فانى أرى فى هذا إثما بشعا واستباحة قبيحة للشر، واعتداء على حق من لاتملك الاعتداء عليه. قال وهو يضحك ضحكا حزينا وأنت مع هذا أزهرى تدرس الفقه وتعرف أن الطلاق مباح وأنه أبغض الحلال إلى الله. ولكنه مع ذلك حلال لاخطيئة فيه، ولا إثم على الذين يقدمون عليه. فأمر الزواج عندنا ليس إلى امرأتى بعد أن قبلته وهو ليس إليها وإلىّ، وإنما هو إلىّ وحدى، فأنا أستطيع أن أمسكه إن شئت وأستطيع أن أحل عقدته إن أردت، وأنا أريد أن أحل هذه العقدة لا إيثارا للطلاق ولا رغبة عن امرأتى ولكن إيثارا لما هو خير من الزواج ولما هو خير من الزوج وإن كانت خليقة بالحب والمودة والعطف، إيثارا للعلم ورغبة فى رقى النفس والعقل. قلت فانى أخشى أن يكون هذا كله

غرورا ووحيا من وحي الأماني ، وما أدرى أيهما خير : هذا العلم الذى تتحدث عنه كأنه شيء لا يدرك إلا إذا تكلفت له ، ما ستتكلف من الشر ، أم هـذه الزوج التى أصفتك ودها ومنحتك حبها ، ووقفت حياتها عليك وجعلها الله رحمـة لك وسكنا . ومن يدرى لعل تحصيل هذا العلم الذى تتهالك عليه وتستبيح فى سبيل الظلم أن يكون ميسرا لك ، وأنت مقيم فى مصر بين أهلك لا تفارقهم ولا تتكلف لهم ظلما ، ولن تكون أول من حصل العلم دون أن يرحل إليه ، والعلم يعـبر إلينا البحر من أوروبا ، وهو يسعى إلينا فى دورنا ، ونحن نستطيع أن نلتمسه فيما يلقى من الدروس وفيما يؤلف من الـكتب ، وإنى لأخشى ألا يكون حب العلم الخالص هو الذى يغريك بهذه الرحلة التى لن أتحرج من أن أراها آثمة وإنما يغريك بها سأم الأديب والحرص على تغيير الحياة ، والطموح إلى منصب الأسـتاذ ، وهذا كله يغرى ، ولـكنه يجب أن يكون أهون على الرجل الـكريـم من أن يدفعـه إلى الظـلم والإثم والعدوان . قال ياسيدى أنك تضيع وقتك ووقتى فلن تقنعنى

بالعدول عن الرحيل ، ولا باظهار الجامعة على جلية الأمر . وليس إلى اقتناعى بالكذب على الجامعة سبيل . أتدرى لماذا أهون عليك.فانى أرى هذا الكذب مباحا وما أكثرما أبيح لنفسى أشياء تحرمونها أنتم على أنفسكم، ويحرمها عليكم الدين وما تواضعتم عليه من الأخلاق . أنا لا أكره هذا الكذب لأنى أراه إثما وإنما أكرهه لأنه سيدفعنى إلى آثام أمقتها حقا، وإلى ظلم أرى أن ظلم الطلاق أهون منه . إنى لأعرف من أمر أوروبا شيئا كثيرا . وقد قرأت غير قليل مما ترسل إلينا من القصص ، وسمعت غير قليل من أنباء الذين يرحلون إليها ويقيمون فيها . وكل هذا ينبئنى بأنى لن أقاوم الحياة الأوروبية وآثارها فى نفسى كما ينبغى للرجل الوفى لزوجه أن يقاومها . فأنا واثق ياسيدى بأنى سآثم وسأنغمس فى الخطايا وأنا أريد أن أحتمل وحدى هذا الإثم وأنغمس وحدى فى شر هذه الخطايا . وأنا أبيح لنفسى أن أكذب على الجامعة ، ولكنى لا أبيح لنفسى أن أكذب على امرأتى كذبا متصلا فأزعم لها أنى وفى أمين ، على حين أنى قد غرقت فى الخيانة الى أذنى .

قلت وقد اقشعر جلدى واضطرب قلبي وأخذني غضب عميق لا أكاد أجهر به ، ولا أكاد أخفيه ، فهل تعلم أنك تقول منكرا من القول ، وأنك تقدم على أمر بشع شنيع وأن حبي لك يحملني على أن أتمنى ما استطعت أن تصرف عن رحلتك هذه صرفا ، وأن تكره على الإقامة في مصر إكراها . أنت تعلم أنك ستأثم في أوروبا ثم تقدم مع ذلك على السفر اليها ، وتشتد في هذا السفر . فأنت إذن تريد الإثم وتتعمد الخطيئة وتصر على المعصية ، ولكن كلمة المعصية هذه لم تكد تبلغ أذنيه حتى جن جنونه ، واندفع في ضحك عريض ، عال ، متصل أخرجه عن طوره ، وكاد ينتهى به الى الشر في جسمه وفى عقله أيضا . وكان هو يضحك ويضطرب اضطراباً عنيفاً من شدة الضحك وأنا واجم ذاهل مبهوت أسأل نفسي أول الأمر عن هذا الخبل الذى مسه . ثم تثوب إلى نفسي قليلا قليلا وإذا أنا أحس العمامة التى على رأسي وأحس الجبة والقفطان اللذين أسبغا على جسمي إسباغاً وأذكر أنى شيخ وأنى أزهرى ، وأنى تحدثت إلى صاحبي

حديث رجل الدين ، وأن صاحبي يسخر مني ويهزأ بي ويردني إلى مكاني الأول ، ويرى أن أمله في قد خاب ، وأن اختلافي الى الجامعة واستماعي للأساتذة الأوروبيين وتحدثي اليه واستماعي منه ، وما قرأنا من كتب أوروبية ، وما كنت أتكلف من التجديد والخروج على الأزهر والأزهريين والتنكر له ولهم ، وما كنت أرمى به من المروق وإيثار البدعة وما كنت اجد من اللذة حين أحس أن الناس يرون في المروق وحب البدع . كل هذا لم يكن الا غشاءً رقيقاً وطلاءً يسيراً لا يكاد يثبت للتجربة الأولى فإذا جد الجد ، وكان أول درس من دروس الحياة العاملة التي ليست كلاماً ولا غروراً ، فأنا الشيخ الأزهري القح الذي حفظ ما حفظ من كتب الدين وورث ما ورث من آثار القرون ، واحتمل في قلبه الضئيل وعلى كتفيه الصغيرتين ، ثقل السنين التي توارثتها الأجيال أثناء ثلاثة عشر قرناً .

أأقول الحق أم أخفيه ؟ ومالي لا أصطنع الشجاعة ولا أحمل نفسي على بعض ما تكره ، وإن الحياة لتحملها على

ما تكره فى أكثر الأحيـــان . لقد استحيت من صاحبى أو استحيت حتى انتهيت إلى الخزى وأحسست كأن رأسى ذاب فى عمامتى ، وكأن هذه العمامة لم تكن تستقر على شىء . وأخذت أتضاءل فى جبتى وقفطانى ، حتى خيل الى أنهما يستقران على هـــذا الكرسى لا يملؤهما شىء . وأخذت قطرات من العرق تسيل على جبهتى فتبلها . وكادت الرعشة أن تجرى فى جسمى المتضائل المضطرب . كل هذا لأن صاحبى ظهر على جلية أمرى . وعرف أنى ما زلت أزهرى النفس والقلب والعقل ، أرى الانغماس فى الحياة الأوروبيـة إثماً وأشفق على صاحبى منه ، وأرى الإصرار على الخطيئة وتعمد الإقدام عليها كفراً ، وأخاف على صاحبى عواقبه . وإذن فأى فرق بينى وبين هذا الشيخ العتيق الذى كان يعرض بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبـده فيتغنى فى بعض دروسه بهذه الجملة التى شاعت عنه والتى كنا نتندر بها ، ونضحك منها ، وكنت أنا أشدالناس تندراً بها وضحكا منها ، «ومن ذهب الى فرانسا فهو كافر أو على الأقل زنديق» .

كذلك قال الشيخ وبذلك كنا نتندر فى الأزهر ومن ذلك كنا نضحك فى أنديتنا الحرة ، التى كان الأزهريون يرونها أندية ابتداع وضلال ، فقد أصبحت أنا كهذا الشيخ ارى ان من ذهب الى فَرَانِسَا فهو كافر أو على الأقل زنديق . ومع ذلك فإن أساتذتى من الفرنجة فى الجامعة يرون أنى حر الرأى ويشفقون علىّ من حرية الرأى هذه ، وكنت أنا أرى أنى حر الرأى ، واغتبط بما يصيبنى فى سبيل هذه الحرية . فقد كنت إذن أكذب على نفسى ، وكنت إذن أخدع أساتذتى ، ولم أكن إلا شيخا أزهريا قحا يرى أن من ذهب الى فَرَانِسَا فهو كافر أو على الأقل زنديق .

كذلك كنت أفكر مستخزيا متضائلا من الخزى بينما كان صاحبى يغرق فى الضحك . حتى إذا أعياه اضطراب جسمه هدأ بعض الوقت يتكلف الهدوء ، ثم لا يلبث أن يعود اليه الضحك العنيف فيهزه هزا عنيفا وهو يردد كلمة المعصية هذه ويقول مازلت تؤمن بالطاعة والمعصية وتردد هاتين الكلمتين ، وما زلت تفكر فى الكفر والإيمان .

ثم يمضى فى الضحك وأمضى أنا فى الخجل والاستخزاء.
ومع ذلك فلو أنى كنت أتحدث الى رجل هادىء عادى غير غريب الأطوار، لما أنكرت من حديثى شيئا ولما رأيت على نفسى منه بأساً، فلم أكن أرى الذهاب الى فرنسا كفرا ولا زندقة وإنما كانت طبيعتى كلها تثور لهذه الجرأة الوقحة، التى كان يقدم عليها صاحبى فى غير تكلف، وهو يتحدث عن الخطايا والآثام وانغماسه فيها وتهيئه للانغماس فيها.
ولقد مضت أعوام وأعوام وذهبت إلى أوروبا مرات ومرات وأقمت فيها فأطلت الإقامة وما زلت اليوم كما كنت فى تلك الليلة تثور طبيعتى كلها اذا سمعت من يتحدث فى هذه الجرأة الوقحة عن الخطايا والآثام والتهيء للانغماس فيها.
ولا بد من أن أمضى من قول الحق الى أقصاه فقد وادعت صاحبى وصانعته واجتهدت فى أن أقنعه بأنى لست شيخا أزهريا قحا، لم أحبب اليه فراق امرأته ولم أعنه على التهيء للانغماس فى الخطايا والآثام. ولكنى فقدت القدرة على مقاومته. وعجزت عن محاولة إقناعه بما كنت أرى لا لأنى

ملت إلى رأيه ، بل لأنى كرهت أن يرانى شيخا أزهريا قحا يؤمن بأن من ذهب إلى فرنسا فهو كافر أو على الأقل زنديق.

وكذلك يسيطر الغرور على أنفس الشــــباب فاذا هم يتكلفون ما لا يحسنون ويحملون أنفسهم ما لا يطيقون ، ويتكلفون هذا النفاق الغريب يخفون به ما فى نفوسهم من أصول الخير ويظهرون به ما يرغبون فيه من مظاهر التجديد.

ثم يرتفع الضحى وإذا صاحبي يردنى إلى بيتى ويفارقنى ليذهب إلى الجامعة ويقول فى لهجة ساخرة لاذعة سألقاك مع المساء ، فلا بد من أن نستأنف حديث الطاعة والمعصية ، فاذا لقينى فى آخر النهار علمت منه أن الجامعة قد احتجزت له مكانه على إحدى السفن ، وأنه مرتحل بعد أسبوع ، وأن زوجه قد ارتحلت ظهر اليوم إلى الريف وأن طلاقها سيبلغها إذا كان الغد .

يونيو فى سنة ...

بينك وبينى أيها الصديق العزيز فتور أحسسته أمس حين التقينا فى قهوتكم هذه التى تزدحم بالشيوخ ، ويشتد فيها لغطهم بالفقه ، والنحو ، والأدب ، وتختلط أصواتهم بهذه الضوضاء العنيفة التى تصدر عن الناس وعن الترام وعن هذه العربات التى تخرج مع المساء من درب الجماميز الى شارع محمد على ، لتنبث فى أحياء القاهرة موزعة عليه ما يحتاج أهلها من اللحم. وقد كان هذا الضجيج المختلط خليقا أن يحول بينى وبين الشعور بهذا الفتور ، حتى يطول الحديث بيننـــا ولكنى لم أكد أصافحك حتى أحسست الفتور فى يدك ، وتأكدت أنه صورة للفتور فى نفسك فلما تحدثنا فصل لى صوتك الهادىء ما أجملت يدك ، واستيقنت أن بينك وبينى شيئاً .

ولولا أصحابك من الشيوخ هؤلاء الذين أحب أن أراهم من

بعد ، وأكره أن أجلس اليهم ،وأن يتصل بينهم وبيني الحديث ، لولا أصحابك الشيوخ هؤلاء ، وما كانوا يشغلوننا به من أحاديثهم عن الأزهر ومدرسة القضاء ودار العلوم ،وما كانوا يشغلوننا به من تهالكهم على أصحاب الطعام حين كانوا يمرون بما يحملون من الفطير والشواء وما يشبهها من هذه الأطعمة الرخيصة ، لولا أصحابك الشيوخ هؤلاء لما اتصل الحديث بينك وبيني أمس إلا فى هذا الفتور الذى تبينته فى يدك وفى صوتك ، وفى وجهك . ولما انصرفت عنك إلا وقد رددت الأمر الى ما كان عليه ، من هذا الصفاء القوى ، الذى لا تكلف فيه ، ولا احتياط . ولكنى جعلت أنتهز الفرص لأخلو اليك ولتفرغ لى فلا تسنح ، ولم يكن من اليسير أن أطلب اليك النهوض معى ، لبعض الجنون كما تعودنا أن نفعل ، فقد كنت على ثقة بأنك ستعتذر ، وستتعلل بأنك متعب مكدود من ليلتك البيضاء ، التى قضيتها معى أمس .

على أنى لم ألبث أن تبينت أنى لم أكن مخطئا فيما كنت أقدر حين رأيتك تتعجل العودة إلى بيتك ولا تحفل بإلحاحى

عليك وإلحاح أصحابك فى أن تبقى معنا كما تعودت أن تبقى حتى يتقدم الليل، وتقل الضوضاء فى الشـــارع، ويطيب الحديث فى هذه القهوة الجميلة.

ولقد هممت أن أنهض لأرافقك الى بيتك، وكنت أظن أن فى مرافقتك هذه الدقائق ما يتيح لى أن أدير الحديث بيننا حتى أبلغ هذا الفتور، وكنت واثقا بأنى إن بلغته فلن أدعه حتى أمحوه محوا، وإن أرقتك ليلة أخرى. ولـكن الله لم يرد ذلك، أو لم يرده أصحابك الشيوخ. فقد نهض صاحباك هذان اللذان طالما نغصا على مجلسى معك فرافقاك واضطررت أنا الى التخلف، والله يعلم الى أين ذهبتم، فلست أشك فى أنهما لم ينصرفا عنك حين انتهيت الى بيتك، وأكاد أعتقد أنك إنما تكلفت الانصراف وتعجلت العودة لتتخلص منى وممن كان معك من أصحابك، ولتفرغ لصديقيك هذين فتقضى معهما شطراً من الليل غير قليل، فيما تعودتم أن تنفقوا ليلكم فيه من عبث وحديث.

ولولا أنى كرهت أن أثقل عليك وعليهما وأن أوصف

بالإلحاح ، لتبعتكم لأعلم علمكم ، ولأسقط عليكم بعدأن يستقر بكم المجلس ، ولأتخذ موضوعاً للصراع ، بينهما وبينى ، فلا أنصرف عنك ، حتى أصرفهما ، وما أوسع حيلتى حين أريد أن أصرفهما عنك ، وأى شىء أيسر من أن آخذ معك فى بعض الحديث ، الذى لا يحبانه ، ولا يسيغانه ، ولا يفهمانه ، فإذا أنت تجيب وإذا أنا أمضى فى الحديث ، وإذا هما يظهران الضجر ، ثم يظهران الضجر الشديد ، ثم يتثاءبان ، ثم يؤذنان بعزمهما على الانصراف ثم ينصرفان ولكنى لم أنشط لشىء من هذا لأنى لم أجد منك ما يعينى على النشاط اليه ، ولأنى لم أجد من نفسى ما يدفعنى إلى هذا النشاط . فقد كنت أنت فاتراً ، وكنت أنا مثقل النفس بالهم ، مملوء القلب بالحزن ، والله يعلم ما احتجت اليك فى يوم أو ليل كما احتجت اليك أمس ، وما افتقدتك فى يوم أو ليل كما افتقدتك مساء أمس . لقد رأيتكم تنهضون ، وأتبعتكم بصرى وأنتم تسعون الى درب الجماميز . حتى اذا انعطفت بكم الطريق ، أثبت بصرى فى الفضاء أمامه كأنما كنت أريد أن ينعطف معكم وأن يبلغكم

وأن يدعوكم إلى وأن يردكم على ، ولـكن بصرى لبث ثابتاً فى الفضاء، لم يستطع أن يتبعكم ولا أن يبلغكم ولا أن يؤدى الى أنفسكم ولا إلى نفسك أنت خاصة رسالة نفسى فرددته إلى خائباً محزوناً ، ومكثت فى قهوتكم هذه أنظر ولا أكاد أرى وألقى السمع ولا أكاد أسمع،ويتحدث إلى من حولى فأجيب حيناً ، وأذهل أحياناً عن الجواب . وقد تفرق الناس من حولى كما تعودوا أن يتفرقوا حين كاد الليل أن ينتصف . وخلت القهوة لى ولجماعات ضئيلة تفرقت فيها حول بعض اللعب ، فأنفقت فيها ما استطعت أن أنفقه من الوقت، وأستطيع أن أنبئك صادقا بأنى دهشت حين سمعت الخادم ، ينبهنى ، إلى أن قد آن أوان الإغلاق فنهضت كارهاً متثاقلا، وأخذت الطريق التى أخذتموها ، فى درب الجماميز ، أسعى أمامى وكأننى كنت أقدر أننى سألقاك عائداً إلى بيتك مع أحد صاحبيك ، فآخذك منه قهراً أو أنفق معك بقية الليل ، هائمين فى القاهرة، أو لاجئين الى دارى أو إلى هذا السطح الجميل الهادىء الذى ينبسط أمام بيتكم الصغير . وكنت كالمستيقن بأنكم إنما ذهبتم

عند أحدكم فى هذا البيت الذى يسكنه غير بعيد من بيتى ، عند جامع ابن طولون ، فسمرتم ما شاء الله أن تسمروا وهزأتم بشيوخكم فى الأزهر ما شـــاء الله أن تهزأوا وذكرتم من أنباء صاحبكم .... ما شاء الله أن تذكروا ، وتناشدتم الشعر بعضكم بعضاً ، وأثنى بعضكم على بعض ، ثم آن لكم أن تتفرقوا فبقى أحدكم فى بيته وخرجت أنت مع صاحبك تسعيان فى هدوء الليل الساكن وتمضيان فيما كنتم فيه من لغو ، وتضحكان من هؤلاء السكارى الذين يتخبطون فى هذه الأحياء الوطنية حين يعودون الى بيوتهم آخر الليل ، حتى إذا بلغتما بيتك آويت اليه ، ومضى صاحبك وحيداً ، يسرع فى هدوء الليل كأنه السهم ، حتى يبلغ داره فى أقصى الظاهر .

كنت أقدر هذا كله وأكاد أثق به ، وأكاد لا أشك فى أنى سألقاك مع صاحبك فى بعض الطريق ، والله يعلم ما سمعت وقع أقدام من بعد ، إلا خيل إلى أنها أقدامكما ، ولكن قطعت درب الجماميز حتى انتهيت الى السيدة دون أن ألقاكما ثم

مضيت نحو جامع ابن طولون ، فلم ألقكما ، ثم انعطفت حتى مررت ببيت صاحبك ، فلم ألقكما ، ولم أر فى البيت ما يدل على يقظة ولم أسمع منه ما ينبىء باتصال السمر والحديث .

فمضيت فى طريقى يائساً من لقائك محزونا لهذا الفتور الذى لم أستطع أن أمحوه حتى انتهيت الى بيتى ، وليتنى لم أنته اليه ، لقد كنت ذاهلا حين بلغت البيت فدققت الباب كما تعودت أن أفعل وانتظرت ، ثم دققته مرة أخرى ومرة ثالثة وكان الصوت يتردد فى هذه الدار ثم يعود الى فينبئنى بشىء لا أكاد أفهمه حتى اذا كانت الطرقة الثالثة عاد الصوت الىّ ينبئنى بما فهمته وارتعت له ، عاد الصوت الىّ يقول لى إنك لأحمق ، فيم تطرق الباب وليس من ورائه من يسمع لك ، ولا من يسرع اليك ، لقد تحمل من كان فى البيت وأصبح البيت خالياً فارغاً هادئاً ينتظر مقدمك لتملأه وتعمره وتذيع فيه الحركة ، لا تعد طرق الباب ، فلن يستجيب لك أحد ، ولكن أخرج المفتاح وأدره فى القفل أمامك ، فاذا انفتح الباب لك ، فادخل واغلقه من دونك أو لا تغلقه فمن يدرى

لعلك لا تستطيع مصاحبة لهذه الوحدة المروعة فى هذا البيت الذى لم يتعود الفراغ . لن تهديك الخادم الصغيرة بمصباحها الضئيل كما تعودت أن تفعل ، فانت تعلم أنها سافرت مع سيدتها فأخرج من جيبك علبة الثقاب وأضىء لنفسك ظلمة الطريق واذهب الى أى الوجهين شئت . اذهب الى غرفتك الحرام ، فلا بأس عليك من الالتجاء اليها ، لن يبلغك فيها صوت ، ولن تنتهى اليك فيها حركة . ولن تتحدث فيها الى صديقك ، ولن تلقى فيها الا كتبك التى لا تحصى . ومن يدرى لعل نفوس المؤلفين لهذه الكتب قد أقبلت جماعات من أعماق الزمان ومن أقطار الأرض ، لتؤنس وحشتك فى هذه الغرفة الخالية . واذهب إن شئت الى غرفة نومك فلن ترى فى السلم سراجا مضيئا ، ولن ترى اذا انتهيت الى أعلى السلم خادمتك الصغيرة مستلقية تغالب النوم وتنتظر مقدمك . ولن ترى فى غرفتك امرأتك فى سريرها تتكلف النوم وهى مستيقظة ، ولكنها لا تريد أن تؤذيك ، ولا أن تشق عليك ، ولا أن تلقى فى روعك أنها تأرق حتى تعود الى غرفتك . فالله يعلم أنهـــا لا تأرق الا

انتظار آلك، وشوقا اليك، ولكنك خليق أن تسيء الظن وأن تقدر أنها إنما تأرق لتحصى عليك الساعات . تستطيع الآن أن تدخل هذه الغرفة لا مترفقا ولا محتاطا فلن توقظ أحداً، ولن يحس مقدمك أحد، ومن يدرى لعل ظلا من امرأتك قد أقام فى هذه الغرفة ينتظر مقدمك ويأبى أن يفارق هذا البيت حتى تفارقه أنت لتعبر البحر .

نعم عاد الى صوت الطرقة الثالثة بهذا الحديث الطويل، فى لحظات لا أدرى أكن طوالا أم قصارا، ولكن الذى أعلمه هو أنى لم أخرج المفتاح، ولم أدره فى القفل أمامى ، ولم يفتح لى الباب ، وانما لبثت قائما أمام البيت بعد أن تردد هذا الحديث فى أعماق نفسى، فملأها حزنا، ووحشة ورعبا، وأكاد أكتب وندما، ولكنى لا أريد أن أعترف بأنى أحسست الندم .

لبثت قائما أمام البيت أسأل نفسى أأقدم أم أحجم ؟ أأدخل الدار أم أنصرف عنها . ثم لا أخفى عليك لقد عجزت عن الإقدام وكرهت أن أفتح الباب، ولم أحس شوقاً الى لقاء

الظلال ، ظلال العلماء ، والأدباء ، والفلاسفة ، قد أقبلوا يؤنسون وحشتي في الغرفة الحرام . ولم أجد جلدا على أن ألقى ظل امرأتي في غرفة نومي ، وإنما استحييت منه أشد الاستحياء ، لم أدخل الدار وإنما انصرفت راجعا ادراجي ، ومضيت أهيم في الطريق أمامي : أخرج من شارع لأدفع إلى شارع آخر ، لا أحفل بما قد يظنه بي هؤلاء الخفراء والشرطيون الذين لا أشك في أنهم كانوا ينكرون شخصي الهائم ، في مثل هذه الساعات المتأخرة من الليل ، ولعل منهم من هم أن يسألني عن أمري ولكنه لم يجد علي من مظاهر الريبة ما يغريه بهذا السؤال ، فخلى بيني وبين الطريق .

وما زلت أهيم وأهيم في غير وجه حتى أحسست يقظة الناس من حولي ، وسمعت أصوات المؤذنين تتجاوب بالدعاء الى الله ، فثابت إلى نفسي بعض الشيء مع ضوء النهار . وتكلفت في مشيي ومظهري ما يصرف عني كل ريبة أو شك ومضيت في هيامي ، ساعة وبعض ساعة ، ثم أنظر فاذا أنا عند قهوتكم هذه التي التقينا فيها مساء الأمس . من أين جئتها ، وكيف انتهيت

اليها، لا أدرى ، ولكنى قد بلغتها وبلغتها متعباً ، مكدوداً ، وما كدت أرى هذه الكراسى ينسقها الخادم فى شىء من الكسل والفتور ، حتى أحسست كأن هذه الكراسى تدعونى الى الراحة ، وحتى رأيتنى أستجيب لدعائها ، وأسرع الى الجلوس ، وأطلب الى الخادم أن يحمل إلى الشاى . ومن فهو تكم هذه أكتب اليك الآن أيها الصديق . وكنت أريد أن أتحدث اليك عن هذا الفتور الذى أحسسته منك أمس لأمحوه ولأتم معك الحديث الذى كنا فيه والذى قطعته أنا بهذا الضحك المفاجىء السخيف الذى دفعت اليه دفعاً والذى أفسد الأمر بينك وبينى . ولكنى لم أحدثك الى الآن إلا عن نفسى وعن ليلتى البيضاء الثانية التى قضيتها فى غير راحة ولا أمن ولا هدوء . على حين لهوت أنت مع صاحبيك ثم استمتعت بالراحة والنوم ، وها أنت ذا الآن تستقبل النهار نشيطاً مستريحاً مبتسما للحياة تريد أن تمضى فيما تعودت أن تمضى فيه من القراءة أو الدرس أو تريد أن تخرج للقاء صاحبيك أحدهما أو كليهما، أوتريد أن تنتظرهما فلعلهما أن يزوراك ليخرجاك

أوليفيا معك . ألست ترى إنك أثر مسرف فى الأثرة وأنك تترك صديقك يحتمل وحده أثقال الشقاء ؟ ألست ترى أن من حق صديقك عليك أن تسرع اليه فتسمع منه ، وتقول له ، وتسليه وتواسيه فانه سيشقى وحده دهراً طويلا حين يعبر البحر إلى تلك البلاد التى ليس له فيها صديق ؟

سأرسل اليك هذا الكتاب مع خادم القهوة وسأنتظر بعد ارساله ساعة فمن يدرى لعلى أن أراك مقبلا مع غلامك الأسود الصغير ....

دخل على بهذا الكتاب غلامى الأسود الصغير هذا وأنا أتهيأ للخروج وكنت كما قدر صاحبى على موعد من صديقى لنذهب إلى دار الكتب . ولكن الغلام لم يكد يفرغ من قراءة هذا الكتاب على فى لهجته الأسوانية التى كانت تضحكنى عادة لأنها تجعل القاف غيناً والغين قافاً والتى لم تضحكنى اليوم وإنما آذتنى وملأت صدرى حرجاً . لم يكد يفرغ من قراءة هذا الكتاب حتى خرجت معه ولكن لا إلى قهوة دار الكتب حيث كان ينتظرنى صديقاى بل إلى قهوة الزاوية حيث كان

ينتظرنى صاحبى هذا الشق .

— ١٠ —

ألم أقل لك أول أمس أنى سأصبح بطلا قبل أن ينتصف النهار من غد فانى قد صرت بطلا منذ أمس وما أظنك تمارى فى ذلك بعد أن قرأت الكتاب الذى أرسلته اليك منذ حين . قال ذلك وضرب المائدة أمامه بعصاه ضرباً خفيفاً فلما أقبل الخادم طلب إليه إبريقاً من الشاى ، ثم استأنف حديثه متعباً مكدوداً وفى صوته شىء غير قليل من التكسر والفتور . قال نعم لقد صرت بطلا منذ أمس ، بطلا لقصة قد تكون كلها جداً وقد تكون كلها هزلا وقد تكون مزاجاً من هذا وذاك ولكنها قصة لا بد لها من بطل على كل حال ، وقد أردت أو أرادت الظروف أو أراد القضاء الخفى أن أكون هذا البطل . فليس من الأشياء الهينة أن يقدم الرجل على طلاق امرأة يحبها ويؤثرها ويعرف لها جميلا لا يستطيع أن يقدره ولا أن يكافئها عليه . ليس هذا من الأشياء الهينة ولا سيما حين تكون

هذه المرأة كريمة النفس رضية الخلق طاهرة القلب نقية الضمير لا يأخذها زوجها بخطيئة ولا يتعلق عليها بسيئة ولا يلقى منها إلا ما يسره ويبره ويرضيه. ومع ذلك فقد أقدمت على هذا الشيء الخطير إيثاراً للعلم وإن شئت فقل إيثاراً لرقى الدرجة وارتفاع المنزلة، وإن شئت فقل اجتناباً للكذب على الجامعة وفراراً من الخيانة الممكنة، بل الراجحة، بل المحققة. وأنا أعلم أنك قد أنكرت علىّ هذا وأنك كنت تجادلنى فيه ولكن تلك الضحكة التى لقيتك بها حين انتهيت إلى بعض الحديث قد قطعت علىّ وعليك هذا الجدال وكادت تفسد ما بينك وبينى من الأمر.

فالآن وقد قرأت كتابى وعرفت من أمرى ما عرفت وزال من نفسك هذا النفور الذى كنت أحسه أمس فقد نستطيع أن نعود إلى هذا الحديث لتعلم انى لم أكن مخطئاً فيما كنت أعتزم وإنى لست مخطئاً فيما تممت عليه من فراق امرأتى قبل أن أرحل إلى أوروبا. وأقبل الخادم يحمل الشاى فملأ منه قدحاً لى وقدحاً له وهو يقول هذا خامس أقداح

الشاى التى شربتها منذ بلغت هذا المكان فى أول النهار .

ثم عاد إلى حديثه من حيث انقطع حين كنا نتحاور فى داره ، فقال لقد كنت تلومنى على أنى أقدر الإثم وأفكر فيه وأعلم منذ الآن أنى سأقترفه وأتهيأ بفراق امرأتى لاقترافه وكنت ترى الاصرار على هذا ذه خطيئة بل كفراً وخروجاً من الدين وكان حديث الكفر يدهشنى لأنى لم أكن أنتظره منك بعد أن عرفتك حر الرأى غاليا فى التجديد . فلا تغضب ان أظهرت هذا الدهش . وعد بنا إلى خلاصة الحديث فأيهما خير ؟ أن يعرف الانسان مكانه من القوة والضعف ونصيبه من القدرة والعجز ، وأن يحتاط لما يعرف من ذلك فلا يقترف من الآثام ولا يجترح من السيئات إلا ما لا يجد منه بدأ ولا عنه منصرفا . أم أن يخدع الانسان نفسه ويغره بها الغرور فيضيف اليها الخير وليست بخيرة ويثبت لها الفضيلة وليست بفاضلة ويحملها ما تطيق وما لا تطيق ، ويقترف من الآثام ما يستطيع أن يجتنبه ويتقى التورط فيه . وما رأيك فى أنى أعرف من نفسى مواطن الضعف وأقدر أن الحياة

الجديدة فى ذلك البلد الذى أنا راحل اليه ستمحى منها هذا المقدار اليسير الذى بقى لها من رعاية العادات والاحتفاظ بالتقاليد والحرص على ما تواضع الناس على أنه الخير وستغمرنى أمواجها الزاخرة المصطخبة فلا أقوى على دفعها ولا مقاومتها وإنما أعيش كما يعيش الناس وآتى من الخير القليل والشر الكثير ما يأتون .

أفإن صارحت نفسى بالحق وأخذتها بأن تحتمل وحدها أوزار أعمالها كنت خاطئا ممعنا فى الخطيئة وكافرا مسرفاً فى الكفر .

فاذا ضللت نفسى تضليلا وغررتها تغريرا وزينت لها وللناس انى سأكون فى فرنسا خيراً مما أنا فى مصر تقياً نقياً وبراً طاهر القلب وأنا أعلم أن ذلك لن يكون مهما أحاوله وأعلم قبل ذلك أنى لن أحاوله لأنى لن استطيع التفكير فى محاولته، أفان عمدت إلى هذا التضليل والتغرير برئت من الخطيئة ونجوت من إثم الكفر والمروق . ألست ترى فى هذا النحو من التفكير والفهم والحكم عوجا والتواء ؟ قلت لا أدرى ولكنى أوثر للرجل أن يقع فى الخطيئة إن لم يكن له بد من الوقوع فيها على غير علم بذلك ولا تهيؤ له ولا تفكير فيه

وأرى فى هذا الاستعداد للإثم بدأ فى اقترافه وفى هذا التهيؤ للأساءة شروعاً فى الأساءة وفى هذا التفكير فى الشر قبل أن يقع مع أن من الممكن ألا يقع إستعداداً رديئا للشر وإلحاحاً آثما فى دعائه وقد كان يحسن ألا تدعوه . والأمر لا يقف فى رأيى عند الدين ولا عند الكفر والايمان ولا عند رعاية العادات والاحتفاظ بالتقاليد والأخلاق وإنما هو يتجاوز هذا كله إلى شىء لاأدرى كيف أصفه ولكن صورته تقع من نفسى موقعاً سيئا فقد يخيل إلىّ أن الإنسان المتحضر المثقف خليق ألا يتجرد ولا يعرى حتى أمام نفسه أن وجد إلى ذلك سبيلا . وقد يخيل إلى أن حياء الرجل المثقف من نفسه هو خير أنواع الحياء وأرقى منازله وقد يخيل إلىّ أن فى مواجهتك لهذا الشر الذى لم تعرفه ولم تدفع إليه بعد وفى تأهبك له شيئا من الخروج عن هذا الحياء الذى لا ينبغى للرجل المتحضر المثقف أن يبرأ منه .

قال فأنت تريد أن تقول إنى وقح أمام نفسى فليس غريباً أن أكون وقحاً أمام الناس ؛ قلت فى شىء من التحفظ هو ذاك

بل إن فى الأمر ما هو أغرب من هذا فانك لا تظهر وقحاً أمام الناس وما أعرف أن أحداً أساء الظن بك أو شك فى سيرتك أو رماك بالخلاعة أو اتهمك بالمجون فأنت إذن تظهر للناس غير ما تضمر وأنت إذن تكاشف الناس بما لا تكاشف به نفسك وأنت إذن خليع ماجن ولكنك تظهر للناس أنك صاحب جد واحتشام. قال وقد عاد إليه نشاطه واستأنف ضحكه العريض فانى ياسيدى خليع ماجن ما أرى فى ذلك عيباً وما أشك فى أنى عظيم الحظ منه وإذا أخفيت ذلك على الناس فما اخفيه إلا اتقاءً لشر الناس وإيثاراً لمنفعتى ليس غير، فقل إنى وقح فى الشر وقل إنى رجل لا حظ له من حياء فأنت إن قلت ذلك لم تعد الحق ولم تؤذنى لأنك لست كغيرك من الناس ولأنك لا تملك أو لا تستطيع أن تؤذينى وأنا تفوت على حظى من الخلاعة والمجون. وأنا على هذا كله أرى أنى أقرب إلى الخير من قوم لا يظهرون خلاعة ولا مجونا ولا يكشفون للناس ولا لأنفسهم عما يطوون من سرائر بغيضة ونيات آثمة خبيثة. فأنا أريد أن أحتمل وحدى وزر خلاعتى وثقل

مجونى وأنا أعلم أن حساب ذلك بينى وبين ضميرى أو بينى وبين الله ولكنى لا أحب أن أمسك امرأتى فاحملها ثقل ما أقترف من الآثام والسيئات وأخونها وأنا أزعم لها أنى وفى ، إنى لاعلم أنى ماخنتها منذ اتخذتها لى زوجا على كثرة ما نازعتنى نفسى إلى الخيانة ومن يدرى لعل حظى من الحياء أمام نفسى أكثر مما تظن . ومن يدرى لعل حظى من هـــذه الأخلاق الأخرى التى تعصم الرجل من الخلاعة والمجون أكثر مما تظن أيضا وإنى لاقيس نفسى إلى صاحبك هذا الشيخ يظفر بالأجازة التى تجعله من علماء الدين وتضمن له أجراً يوسع عليه فى الحياة ويمكنه من الترفيه على نفسه حتى أقدم على ماتعلم ومالا تعلم من الآثام والخطايا والخصال التى لا تلائم علما ولا دينا ولا خلقاً فهو يغرق فى المجون والاثم إلى اذنيه حين تمكنه الفرصة فان لم تواته دعاها واتخذ إليها الوسائل والأسباب وهو فى الوقت نفسه يخطب فتاة كريمة من أسرة كريمة ويظهر لهذه الفتاة البريئة وأسرتها انه أطهر الناس سيرة وأعفهم لسانا وقلباً ويدا . وهو فى الوقت نفسه

يتكلف الوقار والاحتشام ويظهر الأيمان والنسك ولا يكاد المؤذن يتم أذانه حتى يكون فى المسجد قد سبق إلى الصف الأول ولا تراه فى مجلس من المجالس العامة ولا فى نادمن الأندية إلا وفى يده سبحة يعبث بها، وكتاب من كتب العلم والدين ينظر فيه أو ينصرف من النظر فيه وكأنه قد أكره على هذا الانصراف اكراها. أنا ياسيدى خير من هذا الشيخ فى نفسى وخير منه فى نفسك وخير منه عند الله. قلت ضاحكاً أما أنك خير من هذا الشيخ فى نفسك وفى نفسى فهذا شيء ليس فيه شك وأما أنك خير منه عند الله فالله وحده يعلم هذا وما أرى إلا أن كليكما شر من صاحبه وما أرى أن الوقاحة فى الاثم خير من النفاق ولا أن النفاق فى الاثم خير من الوقاحة إنما أمركما كحمارى العبادى قيل له أيهما شر فقال هذا ثم هذا.

قال وقد أرسل من فمه ضحكة ملأت القهوة وما أشك فى أنها لفتت إلينا من كان فيها من الناس. ليس هذان الحماران سواءً ياسيدى بل إن بينهما شيئاً من الاختلاف. فأما أحدهما

قد ينفق النهار لا يذوق طعاما وقد يأرق الليل لا يذوق نوما حتى إذا استقبل الصبح وأدركه الضعف وأضناه الأرق والتفكير استعان على الضعف والضنى بأكواب من الشاى يحسوها هادئاً رفيقاً، ثم يخوض معك فى أحاديث العلم والدين، ويجادلك فى الأخلاق وفلسفة الأخلاق. فهو حمار مثقف متحضر إن جاز للحمير أن تأخذ بحظ من ثقافة أو حضارة. وأما الآخر فهو الحمار الذى ذكره القرآن يحمل الأسفار ويشق بثقلها ولا يعى ولا يفقه مما فيها شيئا، ولا يدرك أن فيها شيئا. ولو قد رأيته منذ حين فى هذا المكان الذى لم يبرحه بعد لوليت منه فراراً ولملئت منه رعبا، إذن لرأيت حيوانا قد أقبل على طعامه من الفول والبصل كما يقبل الحمار على طعامه من اليابس والأخضر، وهو يلتهم الفول التهاما، ويقضم البصل قضما، وبين يديه هذا الغلام الذى لا يزال معه إلى الآن يأكل متحفظاً مستخذياً من نفسه ومن مكانه بين يدى هذا الشيخ أمام الناس. ثم يفرغان من الالتهام والقضم ومن الازدراد والخضم ويحمل إليهما الشاى، فإذا

الغلام يتناوله فى أناة ومهل ، وإذا شيخك الحمار أو حمارك الشيخ لا يكاد يملأ القدح حتى يلقيه فى جوفه إلقاءً كما يصب الماء من النوافذ على الأرض صبا . وأقسم لقد رأيته منذ حين يقبل على هذه القهوة ضعيفا مكدوداً ويسعى إلى مجلسه منها بطيئا متهالكا ، ثم يلقى نفسه على كرسيه إلقاءً كأنه عجز عن أن يمسك جسمه على ما ينبغى له من اعتدال القامة فخرّ على كرسيه كما ينقض البناء . أقسم لقد رأيته يقبل ثم يسعى ثم ينهار على هذه الحال فما شككت فى أنه أنفق ليله أو أكثر ليله فى غير النوم وفى غير ما يأرق له النساك والصالحون ، وفى غير ما يسهر له العلماء والمفكرون . وفى غير ما أنفقت فيه ليلى من ألم وندم ومن هياج واضطراب فى الأرض . ثم لم يكد يستقر ويستقر غلامه هذا بين يديه حتى أقبل اخادم فسمع منهما كلاما ثم انصرف وأقبل صاحب الفول يحمل آنيته وطعامه وحزما من البصل وانكب الشيخ على ما قدم إليه لا يعقل ولا يعى ولا يستأنى ولا يكاد يمضغ أو يذوق إنما هى يد تنقل الطعام من مكانه على المائدة لتلقيه فى مكانه الآخر

من جوفه حتى إذا امتلأ واكتظ وحاول أن يطفىء نار الهضم بهذه الأقداح من الشاى التى ألقاها فى حلقه إلقاء تهالك على كرسيه كما أراه الآن لا نائما ولا يقظان ، وإنما هو شىء بين ذلك . وغلامه جالس بين يديه يرمقه فى خزى وازدراء ، ثم ينظر فى صحيفته ويشغل نفسه عنه بالقراءة . والله يعلم إلى أين يذهبان إذا قاما . والله يعلم فيما ينفق شيخك الحمار أو حمارك الشيخ نهاره وأكبر الظن أنه سيكذب ويمكر ويكيد ، ويسعى بين الناس بالشر ، ويظهر الطاعة والعبادة بين ذلك فيؤدى الصلوات فى أوقاتها ويضع جبهته حيث يريد الله لها أن توضع فى هذا المسجد أو ذاك من المساجد التى تلقاه فى بعض الطريق . كلا ليس الحماران سواءً ياسيدى أحدهما حمار متحضر مثقف والآخر حمار وحشى غليظ . قلت وقد أغرقت فى الضحك هما حماران على كل حال ولكن صورة الحمار الوحشى الغليظ تعجبنى من الناحية الفنية . قال كلٌ يصف حماره الوحشى كما يستطيع فما أظنك تريدنى على أن أصفه كما كان الشعراء الأقدمون يصفون حمرهم الوحشية ، وإنك

لتعلم أن أولئك الشعراء كانوا يرون حمراً تمشى على أربع، أما نحن فنرى حمراً تمشى على رجلين. ثم صب لنفسه قدحا من الشاى وأخذ يدير الملعقة فيه مستأنيا بطيئا كأنما يأتى عملا آليا على حين قد شردت نفسه وفارقتــــه إلى مكان بعيد. وسكت عنه حينا فلم يتحدث ومضيت فى الصمت فمضى فيه ومضت يده تدير الملعقة فى القدح حتى إذا أنكرت منه ذلك قلت له ويحاك ماذا تصنع وفيم تفكر. قال يا سيدى إن الحمر لا تفكر. ثم ألقى الملعقة من يده وأخذ يحسو شايه مصمما على الصمت وماضيا فيه. قلت فإنى أغضبتك حين شبهتك مع صاحبك بحمارى العبادى، فلا بأس عليك فواحدة بواحدة لقد أغضبتنى أول أمس، ثم اعتذرت إلى وقد غضبتك الآن وأنا أعتذر إليك فعد إلى مثل ما كنا فيه من الحديث. قال ما أغضبتنى وما أكره أن أكون حماراً ما دمت أعرف أنى حمار مثقف متحضر فما يتدع إلى القدم فى السماء وانحناء الجسم إلى الأرض والمشى على رجلين أو على أربع كل ذلك لا يعنينى ما دمت أجد اللذة والألم فى الحس والشـــعور والتفكير.

أتدرى ماذا كنت أصنع حين أقبلت على آنفا . قلت لا . قال فانى كنت أتحدث إلى امرأتى أو قل كنت قد تحدثت إلى امرأتى فأطلت الحديث ، ثم أحسست أنها لن تفهم من حديثى شيئا فطويت كتابى وتحدثت إلى أبى فى هذه الأسطر القصيرة التى أقرأها عليك . ثم أخذ يقرأ :

والدى العزيز .

إذا انتهى اليك كتابى هذا فستجد معه صك الطلاق فانى قد طلقت حميدة أمس على كره منى لأنى لا أدرى كم يطول مقامى فى أوروبا وما أحب أن أفرض عليها حياة معلقة مع أنها لم تجن ذنبا ولم تقترف إثما وما لها تتعذب لأنى أريد أن أتعلم وتشقى لأنى أكلف بالاغتراب . وإنى لمحزون لهذا الطلاق الذى أقدمت عليه ولكن لا بد مما ليس منه بد . فاقرأ عليها تحيتى وعذرى واستوصى بها وبأهلها خيراً والسلام عليك ورحمة الله .

ثم قال وكذلك ياسيدى أديت فى هذا اللفظ القصير

السخيف معان لا تتسع لها الكتب الطوال لأن الله قد أراد ألا يفهم الناس عن الناس . وأن تظل بينهم الحجب الصفاق فهم يعيشون ويتعاملون ويعتقدون أنهم يعيشون معا وأنهم يتعاونون على الحياة وأن لكل واحد منهم لبرجا من العاج يعيش فيه لا يظهر عليه أحد ولا يظهر هو منه على انسان . قلت وكتابك إلى امرأتك ماذا صنعت به . قال طويته وماذا تريد أن أصنع به إلا أن أمزقه وألقيه الى النار . قلت فالقه إلى أن لم تجد بذلك بأسا . قال وأى بأس أن تلتهمه أنت أو أن تلتهمه النار ، سواء عليّ ، ولكن لا تطلب إلى أن أقرأ عليك هذا الكتاب خذه وليقرأه عليك غلامك الأسود متى شئت . أما أنا فإنى متعب مكدود وأظن أن قد آن لى أن أنصرف عنك وليس بدمن أن يخلو هذا البيت مما فيه من الأثاث . قلت ستنصرف عنى وستخلى بيتك من أثاثه ولكن بعد أن تستريح فانفق معى بقية اليوم وافرغ لأمرك إذا كان الغد وقم فلننصرف إلى بيتى فلعلك تظفر فيه ببعض الراحة .

ثم نهضنا متثاقلين وخرجنا متباطئين فلما جاوزنا الباب

قال فى ضحك خفيف ما زال حمارك الشيخ أو شيخك الحمار فى ركنه يقظان كالنائم ونائماً كاليقظان .

— ١١ —

يونيو فى ......

لم يؤوني البيت منذ فارقتك ظهر أمس ياحميدتى العزيزة ومع ذلك فقد قضيت فيه وقتى كله منذ انصرف بك القطار عن القاهرة إلى هذا الوقت الذى أكتب اليك فيه وقد كاد يرتفع الضحى . ذلك أن فى نفسى صورة لا تريد ولا أريد أنا أن تفارقنى ، وهى صورتك قبل الرحيل وقد انتحيت ناحية من غرفتنا ووقفت واجمة لا تنطقين . ثم لم أكد أقبل عليك وأدعوك باسمك حتى رفعت إلى عيناً مثقلة ، لا تريد أن ترتفع ثم انهمرت دموعك انهماراً صامتا لا يتبعه ما يتبع دموع النساء عادة من زفير وشهيق . وقد نظرت اليك وأنت فى هذه الحال ساعة لم أقل لك شيئا ولم أقل لنفسى شيئا وإنما وجمت كما كنت واجمة ثم انهمرت دموعى كما انهمرت دموعك ،

ثم قام كل منا فى مكانه لحظات لا أدرى أكانت طوالا أم قصاراً . ولكنها كانت لحظات صمت عميق يغمره دمع غزير . ثم سعيت اليك فى رفق فضممتك إلىّ وطوقتك بذراعىّ فلم تقولى شيئا وإنما أسندت رأسك إلى كتفى وظل دمعك ينهمر سخينا غزيراً . ثم أخذت رأسك بين يدى ولثمت عينيك كأنما أريد أن أشرب دمعك شربا . ثم قبلت جبهتك وخديك ثم ضممتك إلىّ مرة أخرى فقبلتنى ثم افترقنا ومضى كل منا فى الاستعداد للرحيل .

لم تفارقنى هذه الصورة أو هذه الصور ولا أريد أن تفارقنى فما زلت منذ أمس أنظر اليك واجمة وأرى دموعك تنهمر ثم أراك بين ذراعى تذرفين دموعك على كتفى ثم أرانى أقبلك وأراك تقبليننى ثم أراك تسعين فى الغرفة ذاهبة جائية تهيئين متاعك فى صمت متصل لا يقطعه شىء حتى ولا زفرة من الزفرات . ولقد اضطربت فى المدينة بقية النهار وشطراً من الليل ولقيت كثيراً من الناس فتحدثت إليهم وسمعت منهم ، وخيل الى أنهم يفهمونى وخيل إلىّ أنى أفهمهم

وخيل إليهم فى أكبر الظن أنى كنت كما تعودوا أن يرونى دائما ثرثاراً ساخراً متصل العبث والمزاح ولكن الله يشهد ما خلصت لواحد منهم ولا خلص لى واحد منهم وإنما كنت أمنحهم بعض نفسى أو كنت أمنحهم أيسر ما يستطيع الرجل أن يمنح من نفسه. وكنت أرى أن هذا يكفى لأفهم عنهم وليفهموا عنى وكانت خلاصة نفسى مملوءة بك منصرفة إليك تملؤها هذه الصورة وتمتزج بها امتزاجا حتى لكأنها هى ولست أدرى أتعرفين أنى كثير التفكير والتحليل وأنى لا أحس شيئا ولا أجده إلا فكرت فيه وحاولت تحليـــله وتعليله ولكن كيف تعرفين ذلك أو تقدرينه ولم يكن بينك وبينى إلا أيسر ما يكون من الصلات بين الأزواج . فأنت لا تعرفين من أمرى إلا أقله وأيسره وأنا لا يفوتنى من أمرك إلا أقله وأيسره . لست أدرى أتعرفين أنى كثير التفكير والتحليل . ولكن حين رأيت إلحاح هذه الصور على ولزومها لنفسى وامتلاكها لقلبى وامتلاء خواطرى بها وأحسست ما كان بينها وبين نفسى من الامتزاج أخذت أفكر فيما يقوله بعض

الناس من أصحاب التصوف حين يتحدثون عن امتزاج الظرف بالمظروف والعقل بالمعقول والفكر بموضوع التفكير. ولكن فيم أتحدث إليك ياحميدة البائسة إنى لاأقص عليك سخفا لايغنى ولا يستطيع أن يبلغ سمعك ولا أن يستقر فيه ولا أن يتجاوزه إلى قلبك الحزين . وما أنت وهذا الكلام وما أنا والتحدث به إليك وإنما أريد أن أرسل إليك كتابا كله حب وكله بر وكله حنان فأين هذا مما أخذت أهذى به وأخوض فيه . أفكتب علينا ألا تلتقى نفسانا فيطول بينهما اللقاء ؟ أفكتب علينا ألا يكون بيننا هذا الامتزاج الحلو الذى لايخفى معه من أحدنا شيء على صاحبه لا من حسه حين يحس ولا من شعوره حين يشعر ولا من تفكيره حين يفكر . أفكتب علينا أن تلتقى أجسامنا وألا تلتقى نفوسنا إلا لحظات قصاراً فى نظرات قصار سراع كأنما نختلسها إختلاساً . ولكن أتفهمين عنى ما أقول ؟ أتحسين ما أحس ؟ أتجدين ما أجد ؟ إنى لم أتعود أن أتحدث إليك مثل هذا الحديث . وإنما تعودت إلا أتحدث إليك إلا قليلا

وألاّ أتحدث إليك إلا فى أيسر الأشياء وأدناها إلى السخف وأشدها اتصالا بشؤون حياتنا المادية مما يمس شؤون البيت . ما أذكر أنى تحدثت إليك فى الحب وما أعلم أنك تحدثت إلى فيه كنت أرى أنك لن تفهمى عنى إذا تحدثت إليك بما أجد وكان الحياء يمنعك من أن تتحدثى إلىّ ببعض ما تجدين . وكنا نكتفى بالنظرات الحلوة القصيرة يملؤها الحنـــان وكنا نكتفى بحلاوة الصوت ولين الألفاظ وعذوبة النبرات حين نتحدث فى أى شأن من الشؤون ليشعر كل منا بما يجد من الحب والعطف ومن الحنو والاخلاص . وكانت حياتنا على هذا النحو صريحة واضحة فى شؤونها المادية وكانت رمزاً أو شيئا أشد غموضاً من الرمز فيما يمس شؤون القلب والنفس والضمير . ولعلنا لم نشعر قط بأن لنا شيئا من حياة القلب والنفس والضمير. فلم نفكر قط فى تحليل ما بيننا من صلة أو فى تأويله وتعليله . ومتى كنا نستطيع أن نفكر فى ذلك وقد كنت مشغولا عنك بالعمل والكتاب وكنت مشغولة عنى بالبيت وكنا لانلتقى إلا لنتحدث فيما يتحدث فيه الأزواج من الأمور

غير ذات الخطر التى لاتمس قلبا ولانفساً ولا ضميراً . ماذا أقول وإلى من أكتب ؟ والى من أسوق هذا الحديث ! أترين أنك تفهمين عنى هذا الكلام ؟ ما أظن فكيف تفهمينه وأنت تسمعينه لأول مرة . ومع ذلك فإنى شديد الحاجة إلى أن أتحدث إليك كما تعودت أن أتحدث إلى نفسى بهذا الأسلوب العسير الدقيق وعلى هذا النحو الذى لا ينقصه العوج ولا الالتواء .

ومع ذلك فقد كان يسيراً كل اليسر هذا المعنى الذى أردت أن أتحدث به إليك حين بدأت هذا الكتاب فقد كنت أريد أن أنبئك بأنى لم أستطع أن أستقر فى بيتنا بعد فراقك لأنى وجدت فيه وحشة تفتنى عنه وجعلت مقامى فيه مستحيلا . فهمت فى المدينة وتلمست السلوة عند الأصدقاء بقية النهار وصدر الليل . ولم أستطع مع هذا أن أنسى البيت أو أنسى غرفتنا فيه أو أنسى صورتك فى هذه الغرفة طول هذا الوقت رغم الاضطراب فى الأرض والاختلاف إلى الأندية والاتصال بالأصدقاء .

هذا ما كنت أريد أن أتحدث به إليك حين أخذت أسطر

هذا الكتاب فهو يسير سهل كما ترين ولكنى مع ذلك لم أكد آخذ فيه حتى تعقد والتوى بى أو التوى على ودفعنى إلى أنحاء من التفكير ومذاهب من القول بعدت بى عن الغاية ولم أخلص منها ، ولم أعد إلى ما كنت أريد إلا بعد مشقة وعناء وكذلك أنا فى حياتى الشاعرة مضطرب ملتو كثير الاستطراد لا أفكر فى شىء إلا أثار لى أشياء ، ولا آخذ فى مذهب إلا التوى بى إلى مذاهب تشق شقا من نواحيه فأنا أيامن مرة وأياسر أخرى وربما نسيت الطريق التى أخذت فيها أول الأمر ومضيت فى الاستطراد إلى غير أمد .

وكذلك أنا فى حياتى العملية لا آتى أمرا إلا أثار لى أموراً وفتح لى أبواباً من النشاط مختلفة الجهات باباً باباً ولعلى ألج واحداً منها فلا أخرج منه وإنما تفتح لى أبواب أخرى . فأنا مضطرب حين أفكر وأنا مضطرب حين أعمل وأنا مضطرب حين أقول ، والغريب أنى أستطيع مع هذا الاضطراب كله أن أعرف لحياتى وحدة وأن أتبين لها طريقا متشابهة تنتهى أو تريد أن تنتهى إلى غاية مقاربة . ماذا أقول

هأنذا قد بعدت عنك وعما أكتب إليك من أجله وفرغت لنفسي أو شغلت بها فأنا أدرسها وأسرف فى درسها وتحليلها وإن كنت أعلم أن لدىّ من الوقت مايكفى للنظر فى المرآة ولأرى هذه النفس التى أحب وأكره أن أراها . وليس لدىّ من الوقت مايسمح لى بالتحدث إليك فيما أريد إلا القليل . ومن يدرى لعل نفسى غير الشاعرة هى التى تجور بى عن القصد وتنحرف بى عن الطريق المستقيمة لأنها تشفق من المضى إلى الغاية التى من أجلها أكتب .

تشفق عليك وتشفق علىّ أيضا . فأن الأمر الذى أريد أن أتحدث إليك فيه ثقيل خطير ما أحسب أنك تقوين على استماع حديثى فيه وما أشك فى أنى محتاج إلى شىء كثير جدا من الشجاعة والجلد لأمضى فى هذا الحديث . وكذلك ترفق نفسى غير الشاعرة بنفسى الشاعرة وتحميها من بعض ماتكره وتريد أن تؤخر عنها العذاب فما أشد سلطان الإثرة علينا . وما أشد استئثار الضعف بنفوسنا . وما أشد امتلاك الخوف لقلوبنا ولا سيما حين نزعم أننا أقوياء وحين نريد أن نظهر

الناس على أننا أقوياء. ولولا ذلك لما تكلفت هذا الكلام الطويل ولما دفعت الى هذا القول الملتوى حين أحاول أن انبئك بنبأ مهما يكن ثقيلا خطيراً فهو واضح لا غموض فيه ولكن أستحى منك وأستحى من نفسى وأشفق من الصراحة فأتقيها بالفلسفة والتواء الكلام . فلأتشجع إذن ولتتشجعى أنت أيضاً ولأقل إذن ولتسمعى أنت ما أريد أن أقول ، إن القلم ليضطرب فى يدى وأن يدى لتجمد فلا تكاد تتحرك وإنى لمحتاج الى أن أكف عن الكتابة حينا لأسترد القوة والجرأة والنشاط . وهأنذا أستأنف الكتابة وأدافع نفسى دفاعاً شديداً لأحول بينها وبين الاستطراد . ولأكرهها على المضى فيما تلتمس الفراغ منه ولأحملها على أن تقسو عليك وعلىّ فتلقى إليك بهذا النبأ وهو أننا لن نلتقى بعد اليوم .

أف لقد ألقيت العبء وتخففت من الثقل واستطعت أن أتنفس فى غير حرج ولا ضيق وأحسست كأنى أصبحت طلقاً حراً وقد كنت مقيداً مغلولا . لا لشىء إلا لأنى ألقيت إليك هذا النبأ بعد أن كنت أتحرج من إلقائه وأصبحت ملزما

أن أعلله لك وأن أفسره وأن أرد عن نفسي ماسيثور في قلبك من الشبهات وأنا أعلم أنك لن تصدقيني ولن تؤمني لي ولن تقبلي شيئا مما أقول ولكني أقسم مع ذلك ما طلقتك عن قلى ولا فارقتك عن زهد فيك أو رغبة عنك أو نفور منك وأني أقسم ماأحببتك قط كما أحبك الآن وما آثرتك قط كما أوثرك الآن وماعرفت سلطانك علي ويدك عندي كما أعرفهما الآن. بل أقسم اني لأحس كأنما أشطر قلبي شطرين فأحفظ شطره في صدري وأرسل بشطره الآخر الى مكان بعيد في أعماق الريف حيث لا يتاح لي أن ألقاه. بل أقسم ما طلقتك إلا حباً فيك وإيثاراً لك وضناً بك على ما أكره، ولأكن صادقاً كل الصدق فإن الضعف والعجز والخور، كل هذه العيوب هي التي تدفعني الى أن أفارقك أشد ما أكون لك حبا وأعظم ما أكون عليك حرصاً. لم أستطع أن أوثرك على أوروبا فأبقى معك ولم أستطع أن أطمئن الى أني سأكون وفياً اذا عبرت البحر فاحتفظ بما بيننا من صلة الزواج. ولست أريد هذا النوع الخلقي الذي يتصل بالنفس وأنا واثق بأني قادر عليه بل أنا واثق بأنه سيعذبني

وسيكلفنى آلاما وأسقاما . إنما أريد الوفاء الكامل الشامل الذى يملك النفس كلها والقلب كله والضمير كله والجسم أيضاً. أريد هذا الوفاء الذى لا يبيح شركة ولا توهما للشركة ولا تفكيراً فيها . وأنا آسف أشد الأسف محزون أشد الحزن لأنى أعلم أنى سأتعرض للفتنة إذا عبرت البحر وأن بعض اللحظ سيمس قلبي وإن بعض الجمال سيستهوينى وأن بعض الشر سيدفعنى الى شىء من الغى وما أحب أن أعرض حبك استغفر الله ، بل ما أحب أن أعرض زواجنا لهذا الأثم والفساد. لا أستطيع أن أخفى عليك ماقد أقترف من آثم لأنى لم أعودك ولم أعود نفسى الكذب. ولا أستطيع أن أعترف لك بما قد اقترف من أثم لأنى إن فعلت آذيتك فى غير حق وفى غير جدوى وعرضت ما بيننا للفساد . وأنا إن كذبت عليك أهنت نفسى بالكذب وإن اعترفت لك أهنت نفسى بالاعتراف وإذن فالى لا أستقبل الحياة شجاعا جريئاً مستمتعاً بلذاتها محتملا لتبعاتها ؟ كم كنت أريد أن أكون قويا قادراً على أن أقاوم الشر وأعاف الأثم وأحتفظ بقلبي طاهراً نقياً وبجسمي

عفيفاً نظيفاً وأردهما إليك بعد العودة كما ارتحلت بهما عنك أول الرحيل ولكنى عاجز عن ذلك أو عاجز عن الاطمئنان الى ذلك والغريب أن من الممكن أن أعبر بحر الغواية ولا أغوى وأن أقضى أعوام الغربة نقياً طاهر القلب وأن أكون قد شققت على نفسى بهذا الحرج وحملتها ما كنت أستطيع الا أحملها. هذا ممكن ولعله أن يكون ولكنى لا أكتفى بالممكن ولا أطمئن الى الظن إنما أريد الثقة ولا سبيل اليها وأطمع فى اليقين ولا أمل فيه ولهذا أتكلف ما أتكلف وأقدم على هذا الأمر العظيم.

أترين أنك فهمت عنى ؟ ما أظن. ومتى فهم العقلاء عن المجانين ؟ أترين أنك صدقتنى ؟ ما أظن. ومتى صدق الناس مثل هذا الهذيان ؟ يا للحزن ويا للأسى ! لمن أكتب هذا الكتاب والى من أسوق هذا الحديث إنك إن قرأته فلن تفهميه وإن فهمته فلن تقبليه فكيف وأنت لن تقرأيه إنى لغافل ذاهل، إنى لمدله مجنون، لقد أنسيت أنك لا تقرأين ولا تكتبين فمن الذى سيقرأ عليك هذا الكتاب ويفسره لك من أهل الريف. كلا لن أتمه ولن أرسله إليك ولن تعلمى من أمرى إلا أنى رجل

قاس غليظ مسرف فى كفر النعمة وجحود الجميـــل متتبع للأهواء والشهوات لا أتحرج من شيء ولا أعرف لجموح نفسي غاية تنتهي إليها أو حداً تقف عنده. سيسقط النبأ فى أسرتنا كما تسقط الصاعقة وسيلقونه اليك فى عنف أو فى لين وستجزعين وتظهرين التجلد وسيبكى قلبك وتتكلف عيناك الجمود. ثم ستمر الأيام وستحرصين على أن يصل إليك بعض انبائى دون أن يعرف منك هذا الحرص. ثم سيأتى الخاطبون. كلا لا أريد أن أمضى الى أبعد من هـــذا الحد فى التفكير فما أرى أنى أقوى على هذا المضى. لقد أبطأ على صاحبي وكلفني انتظاراً طويلا. ليته يقبل فيخرجنى من هذا العناء.

قرأ غلامى الأسود الصغير هذا الكتاب بعد أن انصرف عنى صاحبي. فلم أكد أفرغ من قراءته حتى رثيت له وسألت نفسي كيف يكون موقع هذا الكتاب من حميدة البائسة لو أنها استطاعت أن تقرأه وتظهر على ما فيه.

— ١٢ —

يوليو فى .....

لم تفارقنى صورتها بعد أيها الصديق العزيز ومع ذلك فقد مضت أيام وأيام منذ انصرف بها القطار الى قريتها فى الريف وحدثت بعد ذلك أحداث واختلفت شؤون فلقيت من لقيت وتحدثت الى من تحدثت اليه وأقدمت من الأمر على اليسير والخطير ثم كانت رحلة وهبط فى القطار الى البحر ومضت فى السفينة الى ما وراء البحر وها أنذا أكتب اليك فى غرفة من غرفها وشهد الله ما فارقتنى صورتها أثناء هذا كله فى يقظة ولا فى نوم .

ولقد سألت نفسى منذ عهد بعيد عن خير ما يستطيع الصديق أن يتمناه لصديق . وسألت نفسى حين عرفتك فأحببتك وحين فارقتك فجزعت لفراقك عن خير ما أستطيع أن أتمناه لك وعرضت على نفسى أجوبة مختلفة لهذا السؤال كنت أطمئن الى بعضها حينا ثم أدعه وكنت أنصرف عن

بعضها الآخر حيناً ثم أعود اليه ولكن الحياة نفسها قد أجابت على هذا السؤال جوابا ما أحسب أني سأتحول عنه. فخير ما أتمناه لك وخير ما أتمناه للصديق وخير ما أتمناه للعدو أن طابت نفسي وأحببت للعدو خيرا هو أن يجنبك الله أسباب الندم ويعصمك من الاضطرار اليه والايغال فيه. فلست أعرف ألما أشد ولا حزنا ألذع ولا عذابا أمض ولا شقاء مفسدا للحياة كهذا الذي يثيره الندم فى نفس الرجل الذى يقدر من الأمر ما يأتى وما يدع.

وإنى لأقول لك هذا عن علم وأتحدث به اليك عن تجربة وأى تجربة، تجربة وددت لو أنى تحملت كل ما ذقت من الألم منذ عرفت الألم مرة واحدة ولم أدفع اليها فيا لها من منغص ماكر قادر يعرف كيف يلقاك جهرة فيقطع عليك كل أمل ويأخذ عليك كل طريق ويردك إلى حزن مظلم متكاثف الظلمة لا منفذ للنور منه فاذا ألح عليك بالهم والحزن وبالتنغيص المتصل والكدر المنقطع حتى انتهى بك أو كاد ينتهى بك إلى اليأس المهلك جلا عنك غمراته ونفث عن قلبك وعقلك

بعض الشيء وخيل اليك أنك قد رددت إلى الفضاء الواسع والهواء الطلق والضوء المشرق ولكنك لا تكاد تذوق الراحة وتطمئن إلى بعض الأمن حتى يمسك هذا الشيطان الخفي مسا رفيقا ولكنه عنيف، لينا ولكنه يبلغ غاية القسوة. يخز نفسك بين حين وحين وخزا يسيرا ضئيلا خفيفا لا يكاد يحس ولكنه يذكرك بمكانه وينبهك إلى أن فى هذا الهواء الطلق راحة لجسمك أن تنسمته مطمئنا فارغ البال ولكن يجب عليك ألا تطمئن وألا يفرغ بالك فهو هنا قريب وإن ظننته بعيداً وأنه دان منك كل الدنو وإن حسبته نائياً عنك كل النأى، فان كنت فى شك من ذلك فانظر واشعر وسل نفسك عن هذا الوخز الخفيف الذى تجده، ماهو أو من أين يأتيك فستعلم أنه مس هذا الشيطان وأنه هذا الندم الذى إن رفه عليك فانه لم ينسك ولا ينبغى له ولا ينبغى لك أن تظن أنه سينساك.

نعم وينبهك إلى أنك قد تجد اللذة فى الحديث مع من يحسن معه الحديث والتفكير فيما يحسن فيه التفكير ولكنه

كفيل أن ينغص عليك لذة الحديث والتفكير بوخزة من هذه الوخزات الرفيقة الضئيلة التي يمسك بها في ناحية من نفسك فاذا أنت تقطع الحديث فجأة وتنصرف عن التفكير فجأة كأنما ذكرت شيئاً كنت تنساه.

نعم وينبهك إلى أنك قد تجد اللذة والمتاع في قراءة الكتاب القيم الذي يغذي عقلك وحسك وشعورك بما شئت من علم وأدب وفن والذي تود لو تفنى فيه فناء وتمتزج به امتزاجا وتنسى لقراءته الزمان والمكان وما يشتمل عليه الزمان والمكان ولكنه خليق أن يحول بينك وبين ما تريد من هذا وأن يفسد ما تجد من لذة ومتاع بوخزة من هذه الوخزات التي يمس بها نفسك في ناحية من نواحيها فإذا يدك تتحرك حركة آلية فتضع الكتاب وإذا رأسك يتحرك حركة آلية فيرتفع الى السماء وإذا أنت واجم قد أنسيت ما كنت فيه واشتمل عليك ذهول غامض واضح معا، فيه انصراف عن كل شيء، وفيه شعور بهذا الشيطان الذي يفسد عليك كل شيء. وقد يكون هذا الشيطان أخفى من ذلك مكراً وأدق حيلة فهو لا يصرفك عن الكتاب ولا يلقيه من يدك ولا يحول عنه

عينيك ولكنه يسايرك فى القراءة كأنه الرفيق ويلقى أثناء ذلك كلمات وخواطر لا صلة بينها وبين ما تقرأ ، فاذا هى تختلط بما تقرأ ، وإذا هى تحول نفسك عما فى الكتاب ، واذا أنت تقرأ بعينيك دون أن يصل شىء مما تقرأه إلى نفسك .

وقد يغلو هـذا الشيطان فى المكر بك والكيد لك ، فلا يسايرك فى القراءة ، ولا يلقى فى نفسك كلمات ولا خواطر . ولا يصرفك عن الكتاب . وإنما يصرف الكتاب عنك صرفا ، يثير بين الحروف والكلمات والسطور صوراً ومظاهر وألوانا من الخيال ، تراها وأنت كاره لرؤيتها ، وتحاول أن تخلص منها إلى هذه الحروف والكلمات والسطور ، فلا تجد إلى ذلك سبيلا . فالكتاب بين يديك ولكنه بعيد عنك ، والكلمات أمام عينيك ولكنها تفر منك . هى تفر وأنت تطلبها ، وهذا الشيطان يلقى بينها وبينك غبـــاراً من هذه الصور والمظاهر والخيالات . وقد يزدريك هذا الشيطان فلا يتكلف فى تعذيبك جهداً ولا عناء . وإنما يداعبك فى رفق ويلاعبك فى استهزاء .

فأنت فى حديثك أو فى تفكيرك أو فى قراءتك وإذا صورة ضئيلة يسيرة رقيقة تتراءى لك ، فتمر بين نفسك وبين ما تريد أن تقول أو تفكر أو تقرأ . ثم لا تلبث أن تنجلى عنك فى سرعة البرق الخاطف فإذا أنت تعود إلى ما كنت تقول وما كنت تفكر وما كنت تقرأ ، ثم ما تزال بك مقبلة مدبرة وسانحة بارحة ، وملمة منصرفة ، حتى يجهدك الشيطان ولم يصبه الجهد ، ويشق عليك ولم تدركه المشقة ، ويؤسك من الحديث والتفكير والقراءة وهو جالس غير بعيد ينظر إليك فى احتقار وازدراء وفى سخرية واستهزاء .

كل هذا وجدته أيها الصديق العزيز منذ مضى بها القطار إلى قريتها فى الريف وما زلت أجده الآن والسفينة تمضى بى إلى فرنسا متكلفة مع البحر فنونا من السير تجاهده جهاداً عنيفاً حين يهيج وتضطرب به أمواجه وتعصف به الريح وتداعبه دعابة حلوة حين يهدأ ويستقر ويعبث على سطحه النسيم . وكم منيت نفسى منذ أخذت أتهيأ لهذه الرحلة أن أجد هذه اللذات المتباينة التى يجدها المسافرون فيما يكون بين

السفينة والبحر من جد وهزل ، ومن خصام ووئام . ولـكن هـذا الشيطان قد حال بيني وبين ما كنت أتمنى من ذلك . فأفسده علي إفساداً ونغصه علي تنغيصاً . ولو أنه ألقى بيني وبين ما أريد من ذلك حجباً صفاقا وأستارا كثافا لهان الأمر ولكان اليأس منه مريحاً . ولـكنه يشرف بي على اللذة إشرافا ويمعن بي فيها إمعاناً ثم يقطع أسبابها قطعاً ويصدني عنها أو يصدها عني أشد ما أكون كلفا بها ، واندفاعا إليها واستعداداً لاجتناء ما هيأت لي من ثمرات .

جنبك الله الندم أيها الصديق ، وعصمك من أثقاله فانها لا تحتمل ومن آلامه فانها لا تطاق .

ولست مع هذا كله مبغضا لشيطان الندم ، هذا الذي يعذبني ، ولا منكراً عليه فانا أعطى الحق من نفسي واقبل راضيا أو كارها ما ليس من قبوله بد . فأنا قد اقترفت الاثم ولابد من أن أحتمل أثقاله وأتجرع آلامه . والاثم عندي شجرة لابد من أن تؤتي ثمرها إذا صادفت من الخصب ما يمكنها من النمو والإثمار . وإنما تصادف الخصب وأسباب

النمو والأثمار حين تصادف نفسا كريمة حرة دقيقة الحس قوية الشعور . والندم عندي آية من آيات الكرم ، وعلامة من علامات السمو ، ومظهر من مظاهر الارتفاع عن الدنيات ، ودليل من أدلة خصب النفس وجودة أصلها واستعدادها للخير وحسن البلاء فيه . وانى لأبغض النفوس المجدبة ، التى لا تعرف ألماً ولا ندماً والتى تموت فيها أشجار الآثام والخطايا ، كما يموت النبات فى الصحراء المحرقة المهلكة

وانى لأبغض هذه النفوس ذات الخصب السيء الرديء التى تغرس فيها أشجار الخطيئة والاثم ، فلا تموت ولا تجف أعوادها . وإنما تثمر خطايا وآثاما .

أترى أيها الصديق أنى مغرور مسرف فى الغرور ، أتعزى عن الألم والندم بتزكية نفسى وأكاد لا أكره ما اقترف من الآثام لأنه يشعرنى بأنى كريم النفس نبيل الطبع نقى الضمير . ولكن لا تنكر علىّ هذا الغرور ، ولا تلمنى فيما ألتمس لنفسى البائسة من ضروب التسلية وألوان العزاء . فلولا هذا الغرور لأهلكنى ما أجد من الحزن ، ولقضى على ما أحس من الندم

ولدفعت إلى اليأس المهلك دفعاً .

وإنى لأعجب كيف انجلت عنى غمرة الأمل، وصرفت صرفا عن هـذه الخيالات الحلوة التى كنت أخلقها لنفسى خلقا، وأستعين بها على ما كنت مقدما عليه من الطلاق حين كنت أتصور الحياة الجديدة من فرنسا ، وما تدخر لى من لذات مختلفة لا تفنى ، فأنا أحاول الآن أن أتصور هذا البلد الذى أنا مقبل عليه فلا أرى إلا هذا البلد الذى أنا منصرف عنه .

أحاول أن أتمثل السربون فلا أرى إلا جامعتكم المصرية وأحاول أن أتمثل رفاقى من الفرنسيين فلا أرى غيرك وغير أصحابك الشيوخ ، ثم أحاول أن أتمثل جمال باريس فلا أرى إلا القـاهره ، وأحاول آخر الأمر أن أضلل نفسى وأعللها وأمنيها الأمانى الآثمة . أحاول أن أتمثل المرأة الباريسية فلا أرى إلا حميدة قائمة أمامى كهيئتها يوم كانت تستعد للرحيل فى بكاء متصل وصمت عميق .

مهما أفعل لأنظر إلى أمام فأنا مكره على أن أنظر إلى

وراء . فلا تلمنى إذن حين أعجز عن أن أخرج من نفسى وعن أن ألتمس العزاء إلا فيها ، فأنا أتلهى بهـذا الغرور عن هذه الأهوال المنكرة التى تأخذنى من كل مكان ، وتسعى إلى من كل صوب . ومالى لا آلم ولا أندم ولا أتجشم من ذلك أهوالا وقد اقترفت إثما عظيما حقاً ، لقد كنت أخافك أيها الصديق فلم أصور لك من هذا الأثم ، اثم الطلاق ، الا أيسره وأهونه ، لم أصور إلا ما فيه من ظلم البرىء والاعتداء على من لم يستحق الاعتداء . وقد لقيت منك مع ذلك لوماً شديداً وإنكاراً عنيفاً ، ونبوا كاد يفسد ما بيننا من الود فكيف لو صورت لك حقيقة هذا الأثم الذى اقترفته وكيف لو كشفت لك عن وجهه الذى أخفيته عليك .

لقد أفلت منك أيها الصديق ولقد بلغ الكتاب أجله ، وقطعت الأسباب بين حميدة وبينى ، وبعدت بى الدار فلا أمل الآن فى إصلاح مافسد . ولا خوف الآن من أن تصدنى عن الرحيل . الآن أستطيع أن أظهرك على نفسى كلها والآن أستطيع أن أنبئك بأثمى كله ، وأنا أعلم أنك ستحتقرنى

وستزدريني وما يعنيني من ذلك وأنا أحتقر نفسي وأزدريها ، فلن يصرفني احتقارك إياي وازدراؤك لي ، ولن يصرفني احتقاري لنفسي وازدرائي إياها عن أن أتمثل هذا الاثم القبيح، وأملأ به خلوتي وأتغنى بالآثمة فيما بيني وبين نفسي غناء قبيحا منكراً بشعاً أكرهه اشـــد الكره ولكن أمعن فيه أشد الامعان .

لن يصرفني ازدراؤك لي وازدرائي لنفسي عن هذا كله وعن أن أسجل نغمات هذا الغناء البشع في هذا الكتاب الذي أرسله إليك .

لست ظالماً فحسب أيها الصديق ، ولكني كافر للنعمة منكر للجميل. فلم تكن حميدة زوجي فحسب. ولكنها كانت منعمة علي منقذة لي ، رضيت بي بعد أن تبذلني غيرها. ومنحتني ودها وحبها بعد أن أعان غيرها أني لست أهلا لود ولا حب .

ان لهذا قصة لم أنسها ولن أنساها ، لأنها مزقت نفسي

تمزيقا ، وعذبت قلبي تعذيباً ، وآذتني فى أعز شىء على وهو الغرور والاعتداد بالنفس .

لقد كان أبواى كغيرهما من أهل الريف يعداننى لعروس غير حميدة وكان أهل هـذه العروس يعدون ابنتهم لى منذ نشأنا صبيين . وكانت الفتاة ابنة عمى ولم تـكن جميلة ولا وسيمة ولـكنها على ذلك كانت محببة إلى أثيرة عندى ، لـكثرة ما سمعت منذ الطفولة من حديث الزواج .

ولـكنك لم تر وجهى ولا شكلى أيها الصديق وا كبر الظن أنك عرفت من صوتى انى قبيح الشكل دميم الوجه بعيد كل البعد عن أن أروق العذارى ، وأرضى أهواء النساء ولم أكن أرى ذلك فى نفسى ولا أعترف به عليها ، ومتى رأيت رجلا قبيحاً دميما يؤمن بأنه قبيح دميم . ولـكن فهيمة كانت ترى ذلك وتتأذى به ، وتنفر منه أشد النفور وكانت تـكره أن يتحدث اليها أهلها ، وأترابها بأمر الزواج ولـكنها لم تـكن تظهر الـكره ، وتعلن الانكار حتى إذا جد الجد

وتقدمت بها وبى السن ، وأخذ أهلنا يفكرون ثم يتحدثون فى أمر الخطبة ، جهرت بالرفض جهرا وأعلنت الاباء إعلاناً وخرجت فى ذلك عماهو مألوف من أمثالها من فتيات الأسر فى الريف ، فنبت على أمها نبواً وامتنعت على أبيها امتناعا ، وأعلنت أنها تؤثر الموت على أن تكون زوجا لهذا الشاب الدميم .

وتصور أنت موقع هذا الرفض من نفسى وأثره من قلبى وفيما كان يملأ نفسى وقلبى من غرور ، ثم تصور أن حميده كانت أبرع من ابنة عمى جمالا ، وأكثر منها مالا ، وأذكى منها قلباً ، وأحسن منها مستقبلا . وأنها مع ذلك سمعت رفض فهيمة فأنكرته وأظهرت إنكارها وتعمدت أن يصل حديث هذا الانكار إلى أهلى ثم إلى ، وكان هذا الانكار وما أظهرت من أمره وسيلة المودة ثم وسيلة الخطبة ثم وسيلة الزواج ، وما زالت فهيمة تنتظر الزوج إلى الآن ولكن حميدة قد ، طلقت فانظر إلى الاحسان كيف يكافأ بالاساءة ، وإلى النعمة كيف تكافأ بالكفر ، وإلى الجميل كيف يكافأ بالعقوق . ومع ذلك فأنى لأنظر الآن فى المرآة أمامى فاستكشف فى وجهى

وخلقى من الدمامة والقبح ما ينهض بألف عذر وعذر بابنة عمى . وما يثقلنى بألوان الندم حين أفكر فيما جزيت حميدة به من العقوق .

أتعرف انى أسافرَ على سفينة انجليزية فقد تهيأت لهذه السفينة وأنبأنى المنبئون بأن المسافرين على السفن الانجليزية إذا استقبلوا المساء لبسوا له لباساً خاصاً لا يقبلون فى غرفة المائدة بدونه ، فاتخذت لنفسى هـذا اللباس واتخذته على أحسن ما يتخذه المترفون ، فلما أقلعت السفينة وأقبل المساء عمدت إلى هذا اللباس فدخلت فيه ، واتخذت ما يتصل به من زينة وكانت صورة حميدة لا تفارقنى ، وكانت صورة فهيمة تعرض لى من حين إلى حين . فلما تهيأت للخروج من غرفتى سمعت فهيمة تنكر قبحى ودمامتى ، ورأيت حميدة تبسم لى وتشير إلى . هنالك نظرت فى المرآة فرأيت ، ثم استحيت ثم بكيت ، ثم نزعت هذا اللباس نزعا ، ولم أخرج إلى غرفة المائدة هذا المساء ثم أصبحت فتكلفت المرض وأخذت نفسى بان آكل فى غرفتى : وأقسمت لا أغشى غرفة المائدة ولا

مجالس السفينة اجتناباً لسخرية النساء . فما أرى منذ الآن إلا أنهن جميعاً فيمة .

أترى إلى أى حد انتهى الاضطراب بعقل صديقك وبما له من حس وشعور ، ولن تعلم حميدة من هذا شيئاً ، ولن تعرف حميدة انى أجد من الندم على فراقها ما يفسد على حياتى إفساداً ويوشك أن ينتهى بى إلى شر ما ينتهى إليه الأحياء .

ليتنى سمعت لك ، وليتنى قنعت بما كنت أنعم به فى مصر فما أظن إلا أنى مقدم على سراب أحسبه ماء حتى إذا بلغته لم أجده شيئاً .

وأخرى لم تعرفها أيها الصديق ولا بد لك من أن تعرفها لتعلم أنا مكرهون على أكثر ما نأتى من الأمر . وأن اختيارنا لعب كله وغرور كله ، فقد كنت أحسب أن الناس لا يعلمون من أمرى إلا ما أريد أن يعلموا فأنبئهم به وأظهرهم عليه . وكنت أظن أن أكثر من عرفتهم فى القاهرة وعرفونى يجهلون أمر زواجى جهلا تاماً . وكنت واثقاً بأنى أستطيع

أن أكذب على الجامعة إن أردت، وأن أزعم لها أنى أعزب وأن أمسك على زوجى وأسافر إلى أوروبا لا أصطحبها. وكنت مع ذلك حريصاً أشد الحرص على ألا أكذب الجامعة، ولم يكن يدفعنى إلى هذا إلا حب الصدق وايثار الخلق والضن بكرامة العلم وطلابه على الكذب الظاهر والخفى، وكنت أحمد من نفسى هذا الاقدام على التضحية، وهذا النصح للجامعة، وهذا الالحاح فى أن أكون صادقا معها فى السر والعلانية معا.

وكثيراً ما وجدت فى هذه التضحية التى كنت أحبها وأرضى عنها مظهراً من مظاهر الغرور، ومصدراً من مصادر العجب والتيه والاكبار للنفس. وكنت أقول لنفسى إذا خلوت إليها، ليس كل الناس قادراً على أن يبلغ من حب الصدق وإيثاره هذا الحد. فأنا إذن شخص نادر وفرد ممتاز ومن حق الجامعة أن تفخر منذ الآن بخلقى، كما أنها ستفخر بعد قليل بجدى واجتهادى وكفايتى فى البحث وقدرتى على الدرس والتحصيل.

وكان هذا الخاطر الجميل يملأنى ثقة بنفسى واكباراً لها ورضى عنها ، ولعل ذلك كان يظهر فيما كنت آتى من حركة وما كنت ألقى من جمل ، بل لعل هذا كان يظهر فيما كان وجهى يأخذ أحياناً من الصور والأشكال . ولكن لا تسل عما أدركنى من الدهش، وما أصابنى من خيبة الأمل، وما ملأ قلبي ذات يوم من الحيرة والاضطراب حين دعانى سكرتير الجامعة لأزوره . فلما لقيته لم يظهر الراحة للقائى، ولم يتكلف الأنس بمقدمى كما كان قد تعود من قبل . وإنما لقينى فاتراً وحدثنى بصوت متكسر ، ثم لم يلبث أن أظهر من التجهم والتكبر والاستطالة ما انكرت . ثم لم يلبث أن ألقى على حديثه قصيراً متقطعاً سريعاً كأنه الصواعق يتلو بعضها بعضا . وقد اتخذ صورة الأستاذ ولهجته، وصوت الواعظ الغالى فى التأنيب. فما ينبغى لطالب العلم أن يكذب وهو القدوة وما ينبغى له أن يغش وهو الأسوة . وقد كانت الجامعة مخدوعة لىّ ، فالآن وقد تبين لها الحق وانكشف لها السر تستطيع الجامعة أن تزهد فىّ زهداً ، وأن تنصرف عنى

انصرافا . وبين الذين تقدموا للامتحان ونجحوا فيه من يستطيعون أن يشغلوا مكانى فى البعثة ، وأن يطلبوا العلم صادقين غير كاذبين، ومخلصين غير متورطين فى الغش ، ولا متكلفين للخداع .

والجامعة تؤثر الف مرة ومرة أن تعدل عن إرسال البعوث ،وأن تغلق أبوابها إغلاقا فى سبيل الطلاب الذين يختلفون اليها على أن تهيء للأمة أساتذة يقيمون حياتهم العلمية على الكذب والغش ، وعلى الخداع والنفاق .

ولست أخفى عليك أنى ضقت بهذا الواعظ الثرثار وتعجلته إتمام الحديث والانتهاء إلى ما يريد . فلم يتردد فى أن يلقى إلى ما عنده القاء فيه كثير من الازدراء ، قال زعموا أنك متزوج يا سيدى وقد زعمت لنا أنك حر طلق .

هنا أريد أن أستغفرك أيها الصديق وما أدرى أتغفر لى فقد أسأت بك الظن واتهمتك بأنك أقدمت على الوشاية بى مخلصاً حسن النية تريد أن تحول بينى وبين الظلم كما أقدمت أنا على تطليق حميدة مخلصاً حسن النية أريد أن أفرغ للعلم

وأن أتجنب الخيانة والإثم.

نعم أسأت بك الظن واتهمتك ورأيت ما بيننا من الصلات وقد تصرم وتقطعت أسبابه، وأحسست شيئاً من الحزن لكذب ظنى بك وخيبة أملى فيك. وكان هذا كله سريعاً مسرفا فى الإسراع لم أكد أتنبه إليه، ولم يتنبه سكرتير الجامعة إلى أن شيئاً غيره وغير حديثه كان يشغلنى. فقد أخذت أسأله من زعم لك هذا السخف، ومن ألقى إليك هذا الهذيان. وكيف تسمع الجامعة لكل ما يلقى إليها من القول، وكيف تصدق كل ما يرفع إليها من الحديث، وما ينبغى لك أن تلومنى هذا اللوم، وتؤنبنى هذا التأنيب قبل أن تتحقق انك تتهمنى بما لا أستطيع له دفعاً، وتأخذنى بما لا أجد منه مخرجا.

قال الرجل مهلا يا سيدى، فليس يخفى عنك ما أنت فيه منذ الآن من التجاء إلى الجدال وشغف بالمراء. فقد ألقى الينا أنك متزوج، ثم ألقى الينا اسم الأسرة التى أنت مصهر اليها، فلم نأخذ بالظنة ولم نطمئن إلى الريبة، وإنما بحثنا

واستقصينا وسألنا حتى تبين لنا الحق وعرفنا أنك قد خدعتنا وضللتنا تضليلا . وما دعوناك اليوم إلا لنقطع ما بينك وبيننا من صلة فترد إليك ما أخذنا منك ونسترد ما أخذت منا .

قلت وقد ثاب إلى عقلى كله، وحرصى على البعثة. قد كان ذلك ممكناً منذ أيام أما الآن فلا، ثم قدمت إليه صك الطلاق فلم يكد ينظر فيه حتى تغيرت حاله معى تغيراً تاماً. وإذا هو يصافحنى مكبراً لى معجباً بى . ألم أقدم على عمل خطير . ثم تبسط معى فى الحديث وقد ضم الصك الذى دفعته إليه إلى ما ينبغى أن يحفظ من أوراقى عنده ، وما زلت أتلطف له وأمكر به ، حتى أطلعنى على ذلك الكتاب الذى ارتفع إليه بالنميمة وأنبأه بزواجى . فقرأت وياشر ما قرأت ، وعلمت وياشر ما علمت . علمت أن صاحب هذا الكتاب صديق لى متصل بى يتكلف المودة ويظهر النصيحة والاخلاص ، ولكنى علمت أنك لست صاحب هذا الكتاب ولا مقترف هذه الوشاية .

وخرجت من الجامعة راضيا ساخطا ومسرورا محزونا، راضيا لأن البعثة لم تفلت مني وراضيا لأنك أنت لست الواشي بي، وساخطا لما انطوت عليه جنوب الناس من المكر والخداع ومن الكذب والنفاق، ومن الحسد الذي يفسد عليهم كل شيء.

فلم يكن لهذا الصديق الذي وشا بي طمع في البعثة ولا طموح اليها، وإنما هو الحسد وحده، رأى أني سأسافر إلى حيث لا يستطيع ولا يأمل أن يسافر. ورأى أن حالي قد تتغير وأن حياتي قد تصلح وأني قد أرقى إلى منزلة لا يستطيع أن يطمع فيها ولا أن يسمو اليها، فكره ذلك وضاق به. ثم جد في أن يحول بيني وبين ذلك وأن يمسكني في المنزلة التي أمسكته فيها الظروف، فأبقى مثله خاملا متواضعاً محدود الأفق من البيت إلى الديوان، ومن الديوان إلى البيت، والقهوة بين ذلك أحياناً.

نعم أيها الصديق خرجت راضيا وساخطا وأنا لا أفكر حين كنت أحس الرضى أو أجد السخط إلا في شيء واحد

وهو أن كيداً كان يكاد تخلصت منه ، وأن مكراً كان يمكر بى فانتصرت على أصحابه ورددت سهامهم فى نحورهم . ثم هبط بى القطار إلى البحر وأخذت السفينة تمضى بى إلى ما وراء البحر ، وأخذت صورة حميدة تلزمنى وتلح على وأخذ الندم يثير فى نفسى من الخواطر ما يثير ، وإذا أنا الآن أسأل نفسى عن هذه الوشاية التى أنكرتها ، ألم تكن خيراً قد صرف عنى وحيل بينى وبين الانتفاع به ، فلو قد نجحت هذه الوشاية وحيل بينى وبين البعثة لكان هذا الاخفاق أول العقاب على ما جنيت من ذنب ، ولكان نذيراً بمـــا ينتظرنى من الشر وإن تممت على ما بدأت من الظلم . ولكان خليقا أن يردنى إلى حميدة أو أن يرد حميدة إلى . ولـكن الله لم يرد إلا أن يقدم بين يدى هذه الرحلة نذيراً بما ينتظرنى فيها من الآلام وطليعة لما ينتظرنى وراء البحر من الشر .

وصدقنى أيهـا الأخ العزيز أنى لأدنو الآن من فرنسا خائفاً وجلا شديد التشاؤم لا أنتظر خيراً ولا نجحا وإنما أنتظر شراً كثيراً وإخفاقا شنيعاً . ولو طاوعت نفسى لما

استقررت فى مرسيليا إلا ريثما آخذ السفينة التى تردنى إلى مصر . ولكن ماذا يقول الناس ، وماذا أقول لنفسى وكيف ألقاك وكيف ألقى غيرك من الأصدقاء المخلصين ومن الأعداء الشامتين ، وماذا أقول لأهلى وماذا أقول لحيدة . أأمضى فى فراقها ؟ ولماذا ، وأنا لم أفارقها عن قلى ولا عن بغض ! أم أعود إليها نادما يائسا معتذرا مستغفرا ، ولكن أتسمع لى ؟ أتعطف على ؟ ثم ما نفع هذا الحديث الذى هو بالهذيان أشبه منه بالجد ؟ إن السفينة لتمضى أمامها لا تلوى على شىء ولن تقف حتى تبلغ مرسيليا . ولو أردت أن أقفها لما بلغت من ذلك شيئا مهما يكن إلحاحى وصياحى ، ومهما أتخذ من وسيلة عند القبطان ، وإنما حياتنا كهذه السفينة تمضى بنا إلى حيث يريد القضاء لا إلى حيث نريد . ومهما نلح ، ومهما نصح ومهما نتخذ من وسيلة فلن نقف حركتها ولن نردها إلى وراء ولن نتقى الانتهاء إلى هذه الغاية التى رسمها لنا القضاء

فلأمضى إذن إلى حيث تريد السفينة أن تنتهى بى ، ومن يدرى لعلى أعود إليك بعد حين ولم أر باريس ولم أختلف

إلى السربون ولم أشهد أندية اللهو والمتـــاع، ومن يدرى لعلى لا أعود إليك، أو لا أعود إليك حتى آخذ من هذا كله بحظ، وكل ما أستطيع أن أقطع به الآن هو أن هذه السفينة التى تعبر بى بحر الروم، ستوفى بى من بعد بحر إلى بحر كما يقول مسلم بن الوليد. ولكن البحر الذى ستوفى بى إليه ليس هذا ولا ذاك من أولئك الأجواد الذين كانوا يغنون الشعراء، وإنما هو بحر آخر عريض لا حد لعرضه، عميق لا آخر لعمقه، هو بحر هذه الحياة الأوربية المملوءة باللذة والألم المفعمة بالخير والشر، فليت شعرى أأرسب فيه أم أطفو عليه.

الآن أحس أنى قد أطلت عليك وإنما يذكرنى بك ويثير فى نفسى الاشفاق عليك من الاطالة هـذه الحركات التى أسمعها تـكثر من حولى فى الغرف المجاورة وفى الطريق أمام هذه الغرف، فقد فرغ السَّفْـر من لهوهم ورقصهم وعادوا غرفهم يقضون فيها ما بقى لهم من الليل.

وداعا يملأه الحب والود والحزن أيها الصديق فما أدرى لعلى لا أكتب إليك بعد هذا الكتاب.

— ١٣ —

أغسطس فى . . .

أحسست كأنى أسمع صوتا ينادينى من بعيد وكأنى أدنو من هذا الصوت ، أو كأنه يدنو منى شيئا فشيئا واستمر هذا الحس لحظة لست أدرى أطالت أم قصرت ، ولكنى وجدتنى قد قربت من الصوت أو قد قرب الصوت منى ، فاذا هو بين يدى ، وإذا أنا أسمع طرقا على الباب وإذا أنا أصيح دهشا أو كالدهش بلغتى العربية الشعبية مين . . . وإذا الباب يفتح وإذا شخص يدخل خفيفاً رشيقا سريع الحركة، سريع الكلام، وإذا هو يقول فى صوت امرأة لقد أشفقت عليك ولقد حسبت أنك لا تفيق، وإذا هو يسرع إلى النافذة فيجذب عنها الأستار ويفتحها ويأذن للشمس بالدخول ، وأنا دهش ذاهل أدعو نفسى وأجمعها . فتجتمع لى وأنظر وأشعر فاذا أنا فى غرفة الفندق التى آويت إليها أمس حين تقدم الليل . وإذا الخادم قد أقبلت تحمل إلى طعام الأفطار ، وإذا النهار قد تقدم حتى

بلغ النصف او كاد يبلغه، وإذا أنا أثوب إلى نفسى وأذكر من أمرى ما كان قد ذاده النوم عنى، فاعلم انى قد بلغت مرسيليا أثناء الليل أمس ، وانى كنت متعبا مكدودا لكثرة ما أرقت وإنى ذهبت إلى أول فندق دلنى عليه ذلك الرجل الذى حمل أمتعتى ووضعها ووضعنى معها فى عربة وأخذ منى ما أعطيته من نقد وقال للسائق إلى فندق جنيف . وقد بلغت الفندق بعد الساعة العاشرة فلم أقبل طعاما ولا شرابا ، ولم أزد على أن أجيب على ما وجه إلى من أسئلة لم يكن منها بد، وطلبت غرفة آوى إليها وأنبأت إنى سأسافر من الغد إلى باريس. ثم لم أكد أبلغ الغرفة حتى خرجت من ثياب ودخلت فى ثياب وآويت إلى السرير مسرعا أتمنى لقاء النوم وأشفق كل الأشفاق ألا ألقاه . ولكنى لم أكد أنزلق فى هذا السرير حتى أحسست راحة وهدوءا ودعة لم أعهدها قط ، فأين هذا السرير الوثير الذى أتقنت تسويته بما ألفت فى دارنا فى ريف مصر ، أوفى بيتى فى القاهرة من هذا الفراش الخشن الغليظ . لقد خيل الى أنى لا أنام على شىء أو أنى أنام على فراش من الزئبق . كان جسمى يضطرب

فى هذا السرير فلا يجد شــيئا يقاومه أو يثبت له ، انما كان يغوص فى الفراش غوصاً . ولم أكد أطيل التفكير فى هذا ولم اكد أفرغ للتفكير فى غير هذا مما شغلنى آخر أيامى فى القاهرة وأكثر أيامى ولياليَّ فى السفينة ، وإنما أخذت أفقد نفسى قليلا قليــلا ، ثم لم أشعر إلا بهذا الصوت الذى كان يدعونى من بعيد والذى لم أكد أرد عليه حتى فتح له الباب وإذا أنا أرى هذا الشخص الرشيق .

والآن وقد دخلت الشمس هذه الغرفة فغمرتها، وردت على اليقظة حسى كله وشعورى كله، وذكرت فى لحظة قصيرة جداً كلما أنبأتك به أيها الصديق أنظر فارى الخادم ذاهبة جائية ، تهيء طعامى على المائدة وتدنى هذه المائدة من السرير فاخرج من غفلة النوم لأدخل فى غفلة الذهول . فأين أنا وما هذه العناية بى ، وما هذا الحرص على تيسير الأمور كلها لى ، من زعم لهؤلاء الناس إنى فى حاجة إلى عنايتهم هذه الدقيقة ، وإلى رفقهم هذا الغريب . هذا السرير الوثير وهذه الخادم تحمل الطعام إلى وتفتح النافذة وتدنى منى المائدة لأفطر فى سريرى

أتراهم ظنوا أنى مريض ! فما أحسب أنهم ظنونى غنياً من كبار الأغنياء. فما كان وجهى لينبيء بذلك وما كان شكلي ليدل عليه.

والفتاة تتحدث وتتحدث، والحديث ينبعث من فمها حلوا عذباً رقيقا، أحاول الآن أن ألتمس له تشبيها فلا أظفر بما ألتمس. وإنما أصور لك الشعور الذى وجدته حين كان يصل هذا الحديث الىّ ويغمرنى فيملأنى دعة وراحة ولذة، وهدوءاً. كنت أشعر كان انسانا يرسل الى نفحات متصلة من الطيب تأخذنى من كل مكان، وكنت أحاول أن أرد عليها بعض الحديث فلا أجد إلى ذلك سبيلا لأنها لم تكن تمكننى من ذلك من جهة ولأنى لم أكن أريد أن أقطع هذه اللذة من جهة أخرى. حتى اذا هيأت لى كل شىء ودعتنى الى الطعام همت أن تنصرف، فرد الى الرشد، وثبت الى نفسى وسألتها متردداً متلهفاً أين تذهبين؟ قالت ضاحكة اذهب الى عملى. قلت وما عملك ومن تكونين أو ليس من عملك أن تمكثى معى حتى أفرغ من طعامى. قالت وهى تغرق فى الضحك «أما عملى فهو هذا الذى رأيت والذى ترى وأما أن أمكث معك

حتى تفرغ من طعامك فليس من عملى وليس اليه من سبيل . وماذا تكون الحال لو أنى مكثت مع كل من أحمل إليه الطعام من أهل الفندق حتى يفرغ من طعامه» . ثم أرسلت إلى نظرة فيها دعابة وابتسامة يملؤها الظرف ، ومضت مسرعة لا تمشى على الأرض وانما تمشى فى الهواء ، ثم أغلقت من دونها الباب وتركتنى ذاهلا كالأبله أمام هذا الأفطار الذى تركته وقتا غير قصير معرضا عنه اعراضا، ثم ناظراً إليه دون أن أقدم عليه .

وانى لفى ذلك وإذا الباب يطرق فآذن فتدخل الفتاة نفسها قد أقبلت تحمل آنية الطعام . فاذا رأت كل شىء كما تركته منذ حين سألتنى دهشة عن أمرى فأسرع إلى الطعام ضاحكا وأنا أقول ألم أطلب اليك أن تمكثى معى حتى أفرغ من الأفطار . لقد أبيت فلم أفطر وها أنت هذه تعودين فانظرى كيف أسرع إلى الطعام .

وكنت مزمعاً أن أسافر مع المساء إلى باريس ، ولكنى لا أدرى لم غيرت رأيى أو لعلى أدرى لم غيرت رأيى فقد قضيت فى القاهرة أياما ثقالا وأجهدنى عبور البحر لكثرة

ما فكرت وقدرت ولكثرة ما أرقت . وليس ما يدعونى إلى أن أسرع إلى باريس فليس الفصل فصل درس واللغة الفرنسية موجودة مسموعة حيثما وجهت من أرض فرنسا فما يمنعنى أن أقيم فى هذا الفندق الجميل المترف أياما أعود نفسى فيه حياة الفرنسيين ، وآخذ نفسى بما لا بد من أن آخذها به من العادات والتقاليد حتى لا أظهر غريبا مضطربا حين أصل إلى العاصمة، وما يمنعنى أن أعود نفسى العبث فى مياه البحر على الساحل قبل أن أبعد فى السباحة وقبل أن أضطر الى مصارعة الأمواج الضخام . لأمكث اذن فى هذه المدينه أياما أستمتع فيها بالراحة وأتمرن فيها على الحياة الجديدة وأنعم فيها بدخول هذه الفتاة على تحمل الافطار إلى اذا أصبحت، فمن يدرى أين يكون مستقرى فى باريس؟ أأجد غرفة كهذه الغرفة ، وسريرا كهذا السرير ، وفتاة كهذه الفتاة تحمل إلى الطعام فى كل صباح؟ وهذه المدينة وسط بين الجو الأوروبى الخالص والجو الافريقى الخالص . فهى على البحر الأبيض المتوسط وفى الانتقال الفجائى من جو إلى جو خطر على صحة الجسم ، وقد

يكون فيه خطر على صحة النفس أيضاً ، فلأصطنع الأناة ولأودع هذه العجلة فإنها لا شك من الشيطان . وما يمنعني أن أستأنى وقد تركت مصر وجعلت من بينها وبيني بحرا عريضا فلست أخاف على البعثة ولست أخشى أن أرد عن باريس .

وكذلك خلقت لنفسي أيها الصديق من التعلات والمعاذير ما أقنعني بأن الاسراع إلى باريس خطل وحمق، وما حملني على أن أنبيء أصحاب الفندق بأني سأقيم أياما وعلى أن أقدم على الكذبة الأولى في حياتي الجديدة فأكتب إلى مراقب البعثة بأني متعب محتاج الى الراحة ، وبأني سأبلغ باريس بعد أسبوع .

والغريب اني قضيت النهار هادئا مستريحا لا أكاد أفكر فيما تركت ولا فيمن تركت ورائي قبل أن أعبر البحر ولا أكاد أشعر بشيء من هذا الألم أو هذا الندم اللذين كانا يثقلان علي في السفينة ، واللذين صورتهما لك تصويرا مخيفاً في آخر كتبي اليك ، واللذين كنت أظن أنهما سيلزمانني لزوم الظل لم أكد أشعر بشيء منهما . ماذا أقول بل لم تتراءى لي صورة حميدة الا مرتين أو مرات قليلة . وكانت تتراءى لي من

بعيد شاحبة الوجه كاسفة البال بادية الحزن ولكنى كنت أراها مسرعة كأنها لاتريد أن تقف عندي ولا أن تثبت لى.

وهأناذا أكتب اليك الآن بعد أن عدت الى غرفتى وقد كاد يبلغ الليل نصفه، ونظرت فاذا الغرفة قد هيئت لاستقبالى واذا السرير قد هيء لأيوائى، واذا دورق من الماء وكوب قد وضعا على هذه المائدة الصغيرة التى تلى السرير. ماشاء الله ما تعودت مثل هذه العناية، ولقد كان الظمأ يوقظنى فى الريف، ولقد كان الظمأ يوقظنى فى القاهرة، فما كنت أجد الى اتقائه سبيلا إلا أن أتكلف النهوض والسعى الى حيث وضعت هذه الجرار الصغيرة التى كانت تبرد لنا الماء. فأما الآن فان الظمأ يستطيع أن يهجم على وأن يوقظنى فسأعرف كيف أرده رداً، وكيف أعود الى النوم كما خرجت منه لا أجد فى ذلك جهدا ولا عناء.

على أنى لم أكد أرى هذا الدورق وأفكر فيما كان يعتادنى من الظمأ فى مصر حتى أحسست الظمأ فأصب شيئا من الماء أحسوه فى هدوء، ولكن ماذا؟ أنه لايرد عنى ظمأ ولا ينقع لى

غلة ،وأنى لا أجد له لذة حين أحسوه ، ولكنى أذكر قصة الأخطل وحديثه حين عرض عليه الماء فى مجلس عبد الملك فقال شراب الحمار .

ولست حماراً ياسيدى مهما يكن رأيك فىّ وفى ذلك الشيخ ، أو قل كنت حمارا قبل أن أعبر البحر ، فلما دخلت هذا الفندق وصعدت الى هذه الغرفة وآويت إلى هذا السرير وأنغمست فى فراشه الوثير وأدركنى ما أدركنى من النوم العميق وأيقظتنى هذه الفتاة ذات الوجه المشرق والثغر المضىء والحديث الحلو،والروح الخفيف نظرت فاذا أنا لم أبق حماراً وإذا أنا قد مسخت إنسانا أوقل صورت انسانا إن كانت كلمة المسخ لاترضيك ، ولكنى على كل حال قدد خلت النوم حمارا وخرجت منه انسانا يحس ويشعر ويعقل ويذوق لذة الجمال ويعرف كيف يستمتع بسحر العيون . أصبحت إنسانا وذكرت قصة الأخطل فعفت شراب الحمار وآليت لا أرد الظمأ إلا بمثل مارده به الأخطل.ولا تغضب ياسيدى ولا تثر فانا فى بلد قلما يشرب أهله الماء ولقد شهدت غداء الناس

وعشاءهم ودهشت حين سألني الخادم ماذا أريد أن أشرب فلما طلبت اليه الماء أظهر دهشا لم يكن أقل من دهشتي حين ألقى على سؤاله . ثم أقبل على بالماء وبعد لحظة وحدق النظر فى . ثم قال ألا يريد سيدى شيئا من النبيذ . فلما أبيت قال متبسطا فى لغة أهل الجنوب ولهجتهم « سيدى مخطىء فالماء لا ينقع الغليل هنا ، ثم انطلق وعاد الى بعد لحظة ومعه دورق فيه نبيذ ونظرت فلم أر الماء فى حجرة الطعام كلها إلا على مائدتى فاستحييت وشربت كما يشرب الناس . وكنت أحسب أن الخادم إنما يرغبنى فى النبيذ ترويجا لتجارة الفندق ، فلما فرغت من طعامى عرفت أن الناس يشربون النبيذ فى هذا الفندق كما يشربون الماء لا يدفعون له ثمناً أوهم يؤدون ثمنه فيما يؤدون من ثمن الغداء والعشاء . آليت إذن ياسيدى أن لا أرد الظمأ بشراب الحمار وأزمعت أن أدفعه بهذا الشراب الذى لم أنتظر قدومى إلى فرنسا لأعرفه وهو الجعة ، فأدق الجرس وأنتظر أن يطرق الباب وأن يفتح وأن تدخل على هذه الفتاة . ومن يدرى لعلى لم أزدر الماء ولم أفكر فى قصة الأخطل ولم

أبتغ هذا الشراب الحرام إلا تعلة لأدق هذا الجرس ولتدخل
على هذه الفتاة ، وليكون بينها و بينى طرف من حديث يقصر
أو يطول . فقد جعلت أتهم نفسى فى كل ما آتى وفى كل ما أريد
منذ استيقظت ظهر اليوم ، وأنى لأتبين أن منظر هذه الفتاة
وعذوبة حديثها وخفة روحها ، وحسن خدمتها ودخولها على
مع الصبح وأذنها للشمس أن تغمر غرفتى . كل هذا هو الذى
بطأنى عن باريس وحبب إلى المقام فى هذا الفندق . فانا إذا
فكرت أو قدرت أو هممت أو فعلت ، أسأل نفسى لعل من
وراء هذا التفكير والتقدير ولعل من وراء هذا الهم والفعل
غرضا خفيا غير ما توخيت من الأغراض الظاهرة . والباب
يطرق وأنا أعلن الاذن بصوت مرتفع تظهر فيه اللهفة وقليل
من الاضطراب . والباب يفتح ولكن ماذا أرى ! أرى رجلا
شابا قد أقبـــل فاتراً متثاقلا وقال فى صوت خافت يملأه
الكسل والسأم والضيق سيدى يريد . قلت وأنا أتكلف كظم
ما ملأنى من الغيظ وأخفاء ما لا أشك فى أنه ظهر على وجهى
وفى عينى من خيبة الأمل . قلت وكأنى ألقيت فى وجهه

ماقلت ألقاء . أريد زجاجة من الجعة . قال نعم صغيرة أم كبيرة . قلت مغضبا أكبر ماعندك . ثم انصرف عنى وعاد إلى بزجاجته وقدحه فلما هم أن ينصرف قلت فقد احتاج إلى أخرى . وما أحب أن أشق عليك حين يتقدم الليل . قال مبتسما إن سيدى لظريف ولكن عندى مايريد سيدى . ثم مضى وعاد باناء فيه الثلج وفيه زجاجة أخرى من الجعة وتمنى لى ليلا سعيداً وأغلق من دونه الباب .

ولعلك تنكر أيهـــا الصديق اقبالى على الشراب وعلى الشراب خاليا وعلى الشراب بعد أن كذب الظن وخاب الأمل . ولكن ما رأيك فى أن كذب الظن وخيبة الأمل ، هما اللذان دفعانى الى الشراب دفعا . فقد وجدت على الحظ وسخطت على الزمان وأبيت أن أذعن لمكر الأقدار وغدر الظروف. وأقسمت لاأذوق النوم حتى أرى وجه هذهالفتاة المشرق وثغرها المضىء وأسمع حديثها الحلو واستمتع بروحها الخفيف. وأى شيء أعون لى على السهر من الشراب والتفكير فيها والكتابة إليك ، لاتغضب ، فما كنت لأكتب اليك لولا

أن أخلف الحظ ظنى وكذب أملى واضطرنى إلى أن أستعين بك على الليل فى مرسيليا، كما كنت أستعين بك على الليل فى القاهرة. لا تغضب فقد عرفتنى أوثر الصدق على الكذب وأكره أن أغشك أو أخفى عليك ما أجد. ولو خيرنى الحظ بين زيارة هذه الفتاة لحظة قصيرة تهدأ لها نفسى الثائرة وتستقر لها خواطرى المضطربة، ثم آوى الى السرير لأنام وبين لقائك أو الكتابة اليك. لما ترددت فى أن أرجىء لقاءك والكتابة اليك الى غد حين يشرق النهار وتملك النفس صوابها كله وأمنها كله، ويفكر العقل فى غير فتور ولا قلق ولا اضطراب. ما أظن أنك سترضى عن هذا الكتاب فليس فيه شىء يرضيك وليس فيه شىء يرضينى وما كتبت اليك لأرضيك ولا لأرضى نفسى، وانما كتبت اليك انتظاراً لمطلع الشمس.

ما أسرع ما تتغير نفس الانسان بل ما أسرع ما تغيرت نفسى فصدقنى انى أنكرها أشد الإنكار ولا أكاد أصدق أن هذه النفس التى كانت هائمة بحميدة، محزونة بل جزعة لفراقها نادمة أشنع الندم وأبشعه على ماقدمت إليها من مساءة

واقترفت فى ذاتها من إثم . لا أكاد أصدق أن هذه النفس التى لم تكن تذوق النوم إلا غرارا « مثل حسو الطير ماء الثماد » كما يقول شاعرك القديم . قد نسيت أو كادت تنسى حميدة وفراقها وطلاقها ومحيت منها أو كادت تمحى صورة حميدة قائمة فى غرفتنا تلك تنهل دموعها الصامتة . لقد كانت هذه الصورة تؤرقنى الليل ، وتنغص على النهار ، ويملأ سنوحها لى قلبى فرقا وذعرا . فأنا الآن أنتظرها فلا تسنح لى وأدعوها فلا تستجيب لى وألح فى الدعاء وفى الاستحضار فأتمثلها شاحبة واجمة ، وكأنى أستحضر روحا من أرواح الموتى وهى لا تثبت بعد أن أجهد نفسى فى دعائها واستحضارها وإنما تمر بى مراً سريعاً كأنها الطيف .

كيف انتقلت من طور إلى طور ، وكيف تغيرت من حال إلى حال ، أكنت خيراً فأصبحت شريراً ؟ أم كنت شريراً أتكلف الخير ؟ فلما بلغت هذا البلد ألقيت عن نفسى أعباء التكلف وأثقاله وظهرت لنفسى كما أنا لا متحفظاً ولا منافقاً ، أم ماذا ! إنى لفى حيرة لا أعرف لها حداً ولكنى على ذلك

كله راض عن نفسي بعض الرضا ، بل كل الرضا ، أترى أني أسأت حين قطعت ما بين حميدة وبيني من الأسباب ، هبني لم أفعل أفكان ما بيني وبين حميدة من الصلة يعصمني من الشر الذي أنا مدفوع إليه أم كنت أدفع إلى الشر دفعاً وأقترف الإثم اقترافاً لا أحفل بحميده ولا بحبها ولا بهذا العهد المؤكد الذي قطعته لها بالوفاء . فأنا مدفوع إلى الشر ما في ذلك شك وأنا عاجز عن المقاومة وأنا أسأل نفسي دون أن ألح عليها في السؤال . أليس يمكن أن تكون هناك قوة خفية ماكرة قد دفعتني إلى ما وراء البحر لألقى في هذه الأرض القريبة كيداً يدبر وأمراً يراد ولأكون نهباً لشياطين الإثم والغواية والفساد ؟ أنا ألقى على نفسي هذا السؤال منذ رأيت هذه الفتاة ففتنت بها ولكني أكره أن أطيل التفكير فيه مخافة أن يثوب إلى الرشد وأن أرد إلى الصواب من أمري وأن أتبين ما أنا مقدم عليه ، ولست أريد أن أتبين ما أنا مقدم عليه الآن ، وإنما أريد أن أتبين الشر إن كان هناك شر بعد أن أن أتورط فيه . لماذا ؟ لست أدري . ولكني لست أستطيع

أن أقف ولا أن أتأخر ، إنما أنا شيء قذفت به قوة عنيفة من قمة الجبل فهو يتدحرج على السفح لا يستطيع أن يمسك نفسه ولن يستطيع أن يمسك نفسه حتى يبلغ الحضيض فتمسكه الأرض السهلة المستوية . أكنت ملحاً في طلب البعثة رغبة في العلم الذي كنت أزينه لنفسي أم رغبة في هذه الأبواب من الفتنة التي لم أكن أستطيع أن أستفتحها في مصر والتي لست أحتاج أن أستفتحها في فرنسا لأنها تفتح لي وحدها ؟

ماذا أقول أيها الصديق أتراني جننت أم تراني سكرت . كلا . . لست مجنوناً ولا سكران وهاتان الزجاجتان لم أمسسهما ، وأني لأتبين كل ماحولي ، وأني لأعرف أني أكتب إليك ، وأني لاستطيع أن أنبئك من أمرنا بما لا يحسن المجانين أن ينبئوا به . لست مجنوناً ولا سكران ولكني عاقل محكم العقل واضح الرأى صافى الذهن أنظر فى المرآة فأرى نفسى منكرة بشعة وأخجل منها حين أنظر اليها وأخجل منك حين أكتب اليك . نعم لست مجنوناً ولا سكران ولكنى

رجل يزدرى نفسه أشد الازدراء ويمقتها أبشع المقت، وكيف تريدنى على ألا أزدرى نفسى وأنا لا أكاد أرى خادما متبذلة تحمل إلى الطعـام وتبسم لى وتتحدث إلى كما تحمل الطعام لعشرات من أمثالى وتبسم لهم وتتحدث اليهم بالصوت نفسه وباللهجة نفسها وبالدعابة نفسها ومع هذا كله لا أكاد أراها حتى يجن بها جنونى ويفتتن بها قلبى وأرجىء من أجلها الرحلة إلى باريس وأقضى من أجلها الليل مسهداً أرقا أستعين على انتظارها وعلى انتظار الصبح بالكتابة والشرب .

لست مجنوناً ولا سكران بل لست أدرى من أنا ولا ما عسى أن أكون . لقد زعمت لك منذ حين أنى كنت حماراً قبل أن أعبر البحر فردتنى هذه الفتـاة انساناً . فصدقنى انى لا أرى نفسى انساناً ولا أعرف من أى نوع أنا بين هذه الأنواع الخسيسة الدنيئة من الحيوان .

إلى اللقاء أيها الصديق لا أحب أن أطيل فى هذا الحديث فانى أخشى أن أخرج من طورى وأن أدفع إلى هذا الجنون الذى أنكره وأبرأ منه .

إلى اللقاء لو أنى عقلت وأحكمت أمرى لانصرفت عنك إلى هذا السرير الذى يدعونى إلى الراحة والنوم، ولكنى أعلم حق العلم انى لن أستريح ولن أنام وانى سأقضى الليل ان آويت إلى فراشى لعبة لصورتين مختلفتين أشد الاختلاف احداهما تخيفنى حتى تبلغ بى أقصى الخوف، والأخرى تغرينى حتى تنتهى بى إلى غاية الاغراء. احداهما حميدة البائسة والأخرى هذه الفتاة الخادم التى لا أعرف من أمرها شيئاً إلا أنها جميلة رشيقة حلوة الحديث خفيفة الروح تحمل الطعام وتبسم للأضياف. كلا. كلا. انى لأكذب عليك وأكذب على نفسى. إنى لأعرف من أمرها أكثر من هذا قليلا. ان اسمها فرتند.

إلى اللقاء أيها الصديق لأشغلن نفسى عنك وعن هاتين الصورتين بمصارعة هاتين الزجاجتين فاما أن تصرعانى فأستريح حتى توقظنى هذه الفتاة من غد، وإما أن أصرعهما فليس الجرس ببعيد وما على إذا أزعجت الخادم وكلفته أن يحمل إلى زجاجة أو زجاجتين.

إلى اللقـــاء.

— ١٤ —

اكتوبر فى . . . .

ليست الحياة لعباً أيها الصديق ، أو قل ليست الحياة كلها لعباً ، والجنون مباح على أن يكون قليلا ، فان طال قصير صاحبه إلى مستشفى المجانين . وقد أشفقت أن يطول جنونى وقد أشفقت أن أدفع إلى هذا المستشفى ، ولكنى أفقت بعد لأى ورشدت بعد غى . وكان أول مالقيته فى فرنسا شراً ولكنى أرجو ألا أستقبل فيها منذ اليوم الا خيراً متصلا .

أنا أكتب اليك من باريس بعد أن أقمت فيها اقامة المستقر لا اقامة الزائر الملم . فستبدأ الحياة الجامعية بعد أيام ولا بد من الانتساب الى الجامعة والاختلاف الى الدروس والا رددت الى القاهرة أشنع رد ، وكيف ألقاك ! وكيف ألقى أصحابنا : وكيف ألقى أهلى وأصحابهم فى الريف وماذا أقول للناس ! وماذا أقول لصورة حميدة ان عرضت لى فسألتنى ماذا أفدت من طول المكث فى باريس أو فى غير

باريس من مدن فرنسا ؟ وماذا أقول لصورة حميدة ان سألتنى ماذا جنيت من هذا الطلاق الذى أقدمت عليه فى غير أناة ولا رشد ولا تفكير ؟

نعم لابد من الانتساب الى الجامعة والاختلاف الى الدروس وارضاء الأساتذة الذين لا أعرفهم وارضاء مراقب البعثة الذى أعرفه وأحبه أصدق الحب وأقواه، وارضاء نفسى التى لا أدرى أأوفق الى ارضائها أم أعجز عنه، فانها بعيدة الطمع شديدة السخط على منذ عبرت البحر.

لابد من الانتساب الى الجامعة والاختلاف الى الدروس وارضاء مراقب البعثة لأظفر بثقته واحترامه. فأنا فى حاجة شديدة اليهما، وأنا لم أظفر منه الى الآن الا بالعطف والبر والاشفاق بعد السخط الذى ليس فوقه سخط. والغضب الذى لايشبهه غضب. فقد كلفته من المشقة ما لم يكلفه أحد من قبلى، وقد حملته من الجهد ما لم أحمله أحداً من قبله. فلم تكن هذه الأسابيع التى أنفقتها فى فرنسا ناعمة ولا راضية، ولم يكن يملؤها الهدوء والاطمئنان وانما كانت أسابيع بؤس وجنون وشقاء

ومرض أيضاً. وأ كتشم على أن أحداً من المصريين فى باريس لم يعرف بما أصابنى شيئاً. وأنت أول من يعرف قليلا من أمرى بعد مراقب البعثة، هذا الصديق الفرنسى الذى يعرف من أمرى كل شىء، ويكتم من أمرى كل شىء. ويعنى بأمرى عناية الأخ المحب الرفيق. والذى استطاع أن ينقلنى من فساد لاحد له الى صلاح أرجو ألا يكون له حد.

أنا أكتب اليك من باريس بعد أن أقمت فيها اقامة الساكن المستقر لا اقامة الزائر الملم. فقد زرت باريس فى الصيف ولكنى لم أقم فيها الا يومين اثنين لقيت فيهما مراقب البعثة وعرفته نفسى وقلت له وسمعت منه ثم استأذنته فى أن أترك باريس حتى ينقضى الصيف. ولم ير بذلك بأساً ولعله رأى فيه خيراً فقد كان يحب ألا ألقى المصريين لأول عهدى بفرنسا ليصح تمرينى على اللغة ويحسن حديثى إلى أهلها وفهمى عنهم. وقد زعمت له أنى أحب أن أعود إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط لأن جوه قريب من جو مصر فلم ينكر ذلك، ولم ير به بأساً ولكنه نهانى عن مارسيليا وزين

لى مدينة قريبة منها على ساحل البحر أيضاً هى مدينة «كان» . فأظهرت الطاعة له والقبول لرأيه والغريب أنه منحنى أجر السفرَ على حساب الجامعة للذهاب والاياب. وتركته وتركت باريس ولكنى لم أذهب إلى «كان» ولم أنزل فى الفندق الذى سماه لى من فنادقها إلا بعد أن مررت بمرسيليا وأقمت فى فندق جنيف أياماً واستوثقت من أنى لن أكون وحيداً فى كان .

ولم لا ؟ إن لفرنند وان كانت خادماً الحق فى أن تستريح وتصطاف كما يستريح السادة ويصطافون . وما يمنعها أن تستريح وتصطاف أسبوعين حيث أستريح أنا وأصطاف .

وكذلك لم أسافر من مرسيليا إلا بعد أن قدمتها بين يدى إلى «كان» فى قطار الصباح ، ولحقت بها فى قطار من قطارات المساء . ولا تسل بعد ذلك عن هذه الأيام الحلوة المرة المشرقة المظلمة التى قضيتها فى هذه المدينة مع فرنند فى أول الأمر ، ثم وحيداً بعد أن آن لفرنند أن تعود . ولا تسل عما جنته على هذه الوحدة من السيئات والآثام فأنت أكرم على

وأحب إلى من أن أقص عليك تفصيلها المنكر البشع . وأنت لا تقرأ كتبي بنفسك وإنما يقرأها عليك غلامك الأسود الصغير . وحسبك أن تعلم أنى رجعت إلى باريس متعباً مكدوداً . أستغفر الله بل مريضاً مشرفاً على أعظم الخطر وأشده نكرا . ولولا مراقب البعثة لما برئت . وإن له عندى ليدا ما أعرف أنى أستطيع مكافأتها إلا بالجد الذى يرضيه ولأبلغن من هذا الجد ما أريد وأكثر مما أريد .

لا تغضب إن انقطعت عنك كتبي فما أظن أنى سأفرغ للكتابة اليك قبل أن يمضى وقت طويل .

— ١٥ —

وكان طويلا حقاً هذا الوقت الذى انقطعت عنى فيه رسائل صاحبي وقد كنت أقدر أنه سيتركني شهراً أو شهرين . وكنت أظن أنه لن يستطيع أن يبلغ هذا الأمد دون أن تثور به خواطره هذه الغريبة فترده إلىّ يلتمس عندى شيئا من الأمن وراحة النفس واستقرار الضمير . ولكن الأسابيع

مضت فى أثر الأسابيع ، وانقضت الأشهر فى أعقاب الأشهر دون أن أتلقى من صاحبي كتاباً أو شيئاً يشبه الكتاب. والغريب أنه لم يعرض عن الكتابة إلى وحدى، وإنما انقطعت عن أصحابنا هذه الجمل القصار التى كان يرسلها إليهم على بطاقات البريد ، وانقطعت أخباره حتى عن أهله فى الريف ، فكثيراً ما كتب إلى أبوه الشيخ يسألنى أوصل إلى من أنباء ابنه شىء. فكنت أرد عليه بأن ابنه فى باريس على خير حال يختلف إلى السربون ويرضى أساتذته ويرضى مراقب البعثة ويرضى الجامعة المصرية عنه أحسن الرضى. ولم أكن أعلله بالأمانى ولا أقول له غير الحق وإنما كنت أسأل عن صاحبي فى إدارة الجامعة ، وأعرف منها أنه بخير وأنه يجد فى الدرس جداً غير مألوف ، ويظهر من التفوق ما لم يألفه الأساتذة الفرنسيون من الطلاب المصريين. ولم أكن أجد فى هذا غرابة فقد كنت أعرف من ذكاء صاحبي الشاذ واستعداده النادر ما لم يكن يعرف غيرى من الذين اتصلوا به وخالطوه . وكانت هذه الأنباء تكفينى وترضينى وتقوم له بالعذر عندى عن انقطاع

رسائله عنى، وتملأ نفسى حباً له وإعجاباً به وشوقاً إليه وحرصاً على أن يتاح لى ما أتيح له من الحظ فأعبر البحر كما عبره، ولكنى كنت أقسم لئن بلغت مرسيليا لاجتنبن المقام فيها إلا ريثما يحملنى القطار إلى باريس، وكثيراً ما كنت أسخر من نفسى حين كان يخطر لى هذا الخاطر فماذا أخاف من مرسيليا! وماذا أخاف من فندق جنيف! وماذا أخاف من فرنند وأمثال فرنند، وما أنا وهذه الفتن التى لم تصل الأيام بينى وبينها سبباً، ولم تجعل الأيام لها على نفسى سبيلا. وما أنا وهذه الفتن وقد كنت غارقاً فى الدرس والتحصيل أتأهب لامتحان الأزهر الذى أخفقت فيه إخفاقاً بشعاً. وأتهيأ لامتحان الجامعة الذى نجحت فيه نجاحاً حسناً. ثم ما أنا وهذه الفتن وقد كنت غارقاً فى أدب أبى العلاء وفلسفته متمثلا لهذه الفلسفة متكلفاً لتشاؤم شيخ المعرة. وكثيراً ما كنت أخدع نفسى وأغرها وأزعم لها أنى سأذهب الى باريس كما ذهب أبو العلاء الى بغداد. ومن يدرى لعلى أعود من باريس، كما عاد أبو العلاء من بغداد. فألزم قرية من القرى وأقيم

فيها لا اريم . ولم أكن فى حاجة الى أن أطلب الى أهل هذه القرية كما طلب أبو العلاء الى أهل المعرة ألا يكلفوه أن ينفر معهم من القرية اذا أغار عليها الروم ، فلم أكن أخشى أن يغير الروم على قريتى فى أدنى الصعيد أو أقصاه . وكذلك كنت مشغولا بجد الدرس وغرور الشباب عن هذه الفتن التي تعرض لها صاحبي ، فأفسدت عليه خلقه ودينه وصحته وكادت تنتهى به إلى الموت .

ثم ينقضى العام ويتقدم الصيف . وإذا الأنباء تأتى من باريس بأن صاحبي قد فعل الأعاجيب فأتم فى عام واحد ما لا يتمه غيره فى أعوام ، وتقدم إلى امتحان ذى بال ففاز فيه وفاز بتهنئة الأساتذة أيضاً . وهو مع ذلك لا يكتب إلى ولا يفكر فىّ ، وقد كنت أظن أن فوزه فى الامتحان وفراغه للراحة سيردانه إلى صديقه لحظات قصارا أو طوالا .

ولكن الصيف كله ينقضى وأنا ألح عليه بالكتب فلا أظفر منه بشىء حتى إذا كان شهر اكتوبر تلقيت منه هذه الأسطر :

اكتوبر فى . . . .

إنك تنتظر أن أكتب إليك لأصف لك حياتى فى باريس، وما كان أحب إلى أن أفعل، ولكن حياة باريس لا توصف فى الكتب والرسائل ولا سبيل لك إلى أن تعرفها معرفة مقاربة إلا إذا حييتها . على أنى أحب أن أصور لك شعورى فى باريس تصويراً مقارباً غير دقيق . ولن يكون هذا التصوير بكلام أكتبه إليك ، فالكلام كما قلت لا يغنى فى باريس شيئاً . ولكن اذهب إلى الاهرام. فما أظن أنك ذهبت إليها قط ، وانفذ الى أعماق الهرم الكبير فستضيق فيه بالحياة وستضيق بك الحياة وستحس اختناقاً وسيتصبب جسمك كله عرقاً ، وسيخيل اليك أنك تحمل ثقل هذا البناء العظيم . وأنه يكاد يهلكك ثم اخرج من هذه الغرفة وتنفس الهواء الطلق الخفيف . واعلم بعد ذلك أن الحياة فى مصر هى الحياة فى أعماق الهرم . وأن الحياة فى باريس هى الحياة بعد أن تخرج من هذه الأعماق . واجتهد فى أن تتم ما بقى لك من درس فى القاهرة وتؤدى ما بقى لك من امتحان . واجتهد

أيضاً فى أن تستبقى رضى الذين يحبونك ويشجعونك ويريدون أن تتم درسك فى باريس، واسرع الى باريس متى استطعت فانى أنتظرك فيهـا وما أكثر ما سيكون بينك وبينى من الأحاديث.

— ١٦ —

وتنقضى السنة الدراسية كلها لا يصل إلى فيها من صاحبى كتاب ولا نبأ، وإنما أسأل عنه فى الجامعة كما كنت أسأل فى العام الماضى فأعرف من أنبائه كما كنت أعرف فى العام الماضى أنه مقبل على الدرس فى نشاط وتفوق، وقد أخذ يدرس اللاتينية بعد أن أحسن الفرنسية احساناً لا بأس به، وأنا أكتب إلى أبيه الشيخ بما أعرف من أنبائه وأتحدث بها إلى أصحابنا حتى أصبح اسمه بيننا رمزاً للجد فى العمل والتوفيق فى الحياة.

وقد تهيأت لى أسباب الرحلة إلى فرنسا على خير ما كنت أحب. وإنى لأستعد للرحيل متنقلا لذلك بين القاهرة والصعيد

وإذا الحرب الكبرى تعلن، وإذا كل شيء يتغير في حياة الأفراد والجماعات ، وإذا رحلتى تؤجل وإذا أنا مضطر إلى أن أقيم في القاهرة بائساً محزوناً سيء الحظ خائب الأمل . وتأتى الأنباء بأن الطلاب المصريين قد هجروا باريس كما هجرها كثير من الفرنسيين وكما هجرتها الحكومة الفرنسية نفسها حين دنت منها جيوش العدو . ولكنى أتلقى من صاحبي هذا الكتاب .

أغسطس في . . . .

لقد زلزلت الأرض زلزالها واضطرب فيها كل شيء وكل انسان أيها الصديق . وما أحاول أن أصف لك من أمر الحرب شيئاً فأنت تقرأ من ذلك في الصحف المصرية والأجنبية ما لا أستطيع أن أبلغه ولا أن أقاربه. وإنما أكتب اليك محزوناً لأن الظروف لم تهيء لك الرحلة التى كنت ترجوها وتعقد بها الآمال . والتى كنت أنا أرجوها وأنتظر منها خيراً كثيراً . فليس لى بين المصريين المقيمين في باريس صديق آنس اليه ان سرتنى الحياة أو أستعين به ان ساءتنى . وانما نحن قوم متخاذلون متنافسون ، يبغض بعضنا بعضاً وينكر بعضنا بعض

ويكيد بعضنا لبعض فى كل شىء ولسبب ولغير سبب. قد طوى كل واحد منا نفسه عن أصحابه فجهل كل واحد منا من أمر أصحابه كل شىء إلا هذه الأمور الظاهرة التى ليس إلى جهلها من سبيل. فنحن نعرف من يختلف إلى السوربون فى مواظبة ومن يزورها لماماً ومن ينفق يومه فى البيت وليله فى القهوة. ونحن نعرف من يعبث مع هذه الفتاة من بنات الغى ومن يدور حول هذه الفتاة من طالبات العلم. ونحن نعرف من تفسد عليه الغواية حياته كلها، ونعرف من يلهيه تتبع الطالبات فى غير نفع عن الدرس والتحصيل. ونحن نعرف من يكتب إلى أهله بالأكاذيب ويخدعهم بالأمانى ويستخلص منهم المال بالحق والباطل وينفق حياته كلها فى اللهو واللعب. ونحن إذا لقى بعضنا بعضاً لم نتحدث إلا فى هذا. ولم نستعن على أنفسنا الا بهذا. وأظنك تعلم أن ليس لى فى شىء من هذا أرب ولا لذة، فأنا وحيد بين المصريين فى باريس وان لم أكن وحيداً بين الفرنسيين. فقد اتخذت لى منهم أصدقاء أحبهم ويحبوننى وآمن لهم ويأمنون لى. ولكنى ألاحظ أن لى

نفسين نفساً تأنس الى الفرنسيين، وتجد اللذة فى عشرتهم وأحاديثهم ومشاركتهم فيما يأخذون فيه من الجد واللهو، ونفساً أخرى مشوقة أبداً، ملتاعة أبداً، تحب أن تسمع صوتاً مصرياً صادقاً وأن تأمن الى قلب مصرى صادق. على أنى قد حرمت لقاء المصريين والفرنسيين جميعاً. فأما أولئك فقد فروا بأنفسهم من الموت الذى يقال إنه قد يغزو باريس، وأما هؤلاء فقد دفعوا بأنفسهم دفعاً الى لقاء الموت ليردوه عن باريس. فقد أنفت أن افر مع أولئك، وضعفت أن أنفر مع هؤلاء. وآثرت موقفاً لا أحمده لنفسى ولا ألومها عليه وهو موقف الانتظار، وما أرى الا أنى سأخرج من هذا الموقف كارها ان استطاع الموت أن يقتحم ما أعد له الفرنسيون ليردوه عن هذه المدينة الخالدة. فما أملك حياتى حين يقدم الموت على باريس. على أنى أجد فى هذه المدينة الخالية التى فر الناس منها ذعراً أو نفر الناس منها حفاظا ونجدة شيئــــاً من الشعر الرائع لا أستطيع تصويره وانمــا أستطيع أن أقول إنه يملك على نفسى ويفعم قلبى افعاماً، ويحبب الى هذه الأرض كما لم أحب أرضاً قط.

نعم وأجد فى مقامى فى هذه المدينة الخالية لذة لاأدرى كيف أصورها وفخراً لاأعرف كيف أصفه، ومع أنى لم أنفر مع الناس فقد يخيل الى أنى شجاع فليس جباناً ولا ضعيف القلب هذا الذى لم يفر مع من فر، ولم يعد الى مصر فيمن عاد من الطلاب ولم يغير من أمره شيئاً مع أن كل شىء من حوله قد تغير، وما زال يتغير، وانما ظل فى مكانه هادىء النفس مطمئن القلب ينتظر الأحداث والخطوب لا خائفاً ولا وجلا ولا مذعوراً.

ولقد أخذت على نفسى عهداً أن لا أبرح باريس مهما تكن الظروف. وستعلم أنى سأفى بهذا العهد مهما يكلفنى ذلك وان انتهى بى إلى الموت. وأى شىء يكون الموت فى سبيل باريس. لقد أبيت أن أكتب اليك فى وصفها وفى وصف الحياة فيها لأن ذلك لم يكن ميسوراً ولأنى كنت أرجو أن تقدم على باريس فأظهرك على ما تستطيع أن تظهر عليه من أمرها. وقد تأخر قدومك وكنت أحب أن أعلك بالحديث عن باريس ولكنى عاجز حتى عن هذا مشغول

بالحديث إلى نفسى عن الحديث اليك . فكم لى من ساعات أخلو فيها إلى نفسى حتى تنقطع الأسباب بينى وبين كل شىء، وبينى وبين كل انسان . والناس مع ذلك حولى يذهبون ويجيئون ويموج بعضهم فى بعض . فأنا لا أخلو إلى نفسى هذه الخلوة فى بيتى، وإنما أخلو إلى نفسى فى الحدائق والمتاحف والقهوات حيث يجتمع الناس ويزدحمون . أخلو إلى نفسى أمام تمثال من هذه التماثيل . أو عمارة من هذه العمارات ، أو معهد من هذه المعاهد التى يستقر فيها الجد خصباً حافلا بالنفع والأمل لا لأهل باريس ، ولا لأهل فرنسا ، بل للناس جميعاً ، ومنهم هؤلاء العدو الذين يقدمون على باريس ومعهم الموت يريدون أن يصبوه عليها صبا .

نعم وأخلو إلى نفسى أمام معهد من معاهد اللهو هذه التى تستقر فيها الدعابة فتبعث الفرح فى القلوب جميعاً . وتبعث الابتسام إلى الثغور جميعاً، وتجدد النشاط للعمل وتحبب الحياة إلى الذين زهدوا فى الحياة .

أخلو إلى نفسى أمام هذه الأشياء التى أراها كنوزاً

للانسانية قد حوت خير ما عند الانسانية من فن وأدب ومن فلسفة وعلم ومن عمل وأمل ومن تفكير وتدبر وروية ونشاط.

أخلو إلى نفسى أمام هذه الأشياء وأفكر فى أن قوماً يزحفون عليها يدون بها السوء، ولا يكرهون، ولعلهم يحبون أن يمحقوها محقاً، ويسحقوها سحقاً، ليغضوا من أمر باريس، وليغضوا من أمر فرنسا دون أن يحفلوا بأنهم ان فعلوا فسيغضون من أمر الحضارة كلها، وسيعلنون فى القرن العشرين كما أعلن آباؤهم فى أول التاريخ المسيحى أن عهد الحضارة والعلم والفلسفة والتفكير والفن قد آذن بزوال، وأن الانسانية قد آن لها أن تستريح من جهدها الخصب العنيف وأن تعود إلى هذه الراحة المجدبة التى يملؤها الذل والعقم والهوان.

أخلو الى نفسى أمام هذه الأشياء وأراها قائمة باسمة نضرة يملؤها الفخر والتيه ويزدهيها الأمن، ثم أراها وقد مستها لفحة من لفحات العدو فاستحال ابتسامها عبوسا ونضرتها ذبولا وكبرياؤها ذلا وخنوعاً. واذا أنا مدفوع اليها متصل بها، فان فيها، أنعم لأنها ناعمة، وأبسم لأنها باسمة، وابتئس لأنها

مبتئسة . ويدركني الموت لأنه أدركها .

حرام على فراق باريس حتى أصير الى مثل ما تصير اليه وأخرج معها من الأهوال بما تخرج به منها ولتغضب الجامعة إن شاءت أن تغضب ، ولترض الجامعة إن أحبت أن ترضى فقد دعت طلابها الى مصر فعادوا سراعاً وأكبر الظن أنها ستردهم الى فرنسا بعد أن تستقر الأمور شيئاً ، ولكنها ستحول بينهم وبين باريس لأن باريس قريبة من الخطر معرضة له دائماً ، وسيعود هؤلاء الطلاب وقد تقدم معهم . وسيتعرفون من أرض فرنسا فى حيث يستقر الأمن والسلم وفى حيث لا تصل إليكم يد العدو ولا تبلغكم قذائفه أما أنا فمقيم هنا لا أريم ، منتظر هنا مع المنتظرين . ومن يدرى لعلى أخرج من هذا الانتظار الى العمل . فما ينبغى للرجل الكريم ذى المروءة أن يعيش مع الناس ضيفاً عليهم مستمتعاً بما يمنحونه من الأمن ، آخذاً بأوفر حظه مما يبيحون له من لذة العقل والقلب والجسم ، حتى إذا ألمت بهم الخطوب أو هجمت عليهم الأحداث فر عنهم مسرعاً لا يلوى على شىء أو أقام فيهم جباناً آثراً

خانعاً لا يبتغى إلا أن يعيش .

نعم ما ينبغى للرجل الكريم ذى المروءة والنجدة أن يسير هذه السيرة وما كنت أحب للجامعة أن تلقى على طلابها هذا الدرس أو تدعوهم الى هذه السيرة . وأنما كنت أحب منها شيئاً آخر . وأنا أعلم أن الجامعة أمينة على حياة طلابها مسؤولة الى حدما أمام أهل هؤلاء الطلاب ، ولكنى أعلم أيضاً أن الجامعة لا تجير من الموت ، وأن أهل الطلاب لن يستطيعوا أن يرجعوا عليها ان ألمت بطالب من طلابها علة مهلكة أو عدت عليه عادية لا مرد لها . وهل الحروب الا بعض هذه العلل والعوادى . وماذا تقدم الجامعة الى الناس حين تقدم اليهم هؤلاء الطلاب أساتذة قد فروا حين أقبل الخطر وآثروا الحياة على الموت حين كان الكرم والشهامة والنجدة وعرفان الجميل . حين كان هذا كله يريدهم على أن يسعوا الى رد الخطر كما سعى الفرنسيون أو يثبتوا لانتظار الخطر كما ثبت أنا . انما تقدم اليهم أساتذة قد فروا من الخير الى الشر ومن الايثار الى الإثرة ومن الكرم والنبل الى الذلة والهوان .

وأنا أعلم أنك أيها الصديق تنكر هذا منى وتراه جنوناً أو تراه اسرافاً ولكن ما رأيك فى أن أرى هذا طبيعياً وأصدر عنه حين أفكر وحين أعمل وفى أنى قد رفضت العودة حين عاد الطلاب الجامعيون،ورفضت الهجرة حين هاجر الطلاب غير الجامعيين إلى الأقاليم النائية وآثرت البقاء لم أجد فيه مشقة ولم أتكلف له جهداً . وسينقطع عنى من غير شك مرتب الجامعة ولن أطالب بعون من أحد ولا أحب أن تنتقم من ذلك بشيء . وقد أتعرض للضر . وقد أذوق لذة الجوع . وما أرى بذلك بأساً فأن معى ملايين سيتعرضون لهذا الضر وسيذوقون هذه اللذة ، وما أحب أن أسعد وهم أشقياء ، ولا أن أشبع وهم جياع . على أنى لا أريد أن أغلو ولا أن أصور لك نفسى فى صورة بعض الذين نجحت بيأس من هذا الشر المحدق لأعود بك إلى ما أنت فيه من حياة ناعمة وادعة ، ولئن ألمت بها الكارثة لأكونن واحداً من هذه الملايين التى تشقى ولكنها لا تصور شقاءها فى الكتب ولا تتحدث به إلى الأصدقاء من وراء البحر ولا تنتظر ناصحاً ثابتة له مضمنة اليه حتى تنفرج عنها الكربة

وتزول عنها الغمة، وتنجاب عنها ظلمة الليل. ولعل أظهر ما تترك الحرب فى نفوسنا من الآثار أنها تهون علينا الحياة وتزيل عنها هذه الأغشية التى نسجتها الحضارة لها نسجا من الإيثرة وحب اللذة والتهالك عليها والطموح الى الترف والحرص على الأمن والاستمتاع بما يتيح من نعيم. فكل هذا شىء مصنوع متكلف أنتجته الحضارة إنتاجا. وليس هو فى طبيعة الحياة وإنما طبيعة الحياة أيسر من هذا وأدنى الى السذاجة، انما هى حركة ونشاط يعقبهما سكون وخمود. انما هى هذا الذى نراه فى غيرنا من الحيوان الذى يتبع غرائزه آخذا من نشاطه باعظم حظ يستطيعه، حتى اذا ألمت به الكارثة أو تلقاه الموت لم ينظم شعراً ولم يكتب نثرا وانما انتظر الموت مذعنا له. ودخل فى الفناء كما خرج منه، لم يرد الدخول فيه كما لم يرد الخروج منه.

نعم هذا أظهر ما تترك الحرب فى نفوسنا من الآثار فنحن نتبع غرائزنا أكثر مما نتبع عقولنا. نحن شجعان دون أن يكون لنا فضل فى الشجاعة. ونحن مؤثرون دون أن يكون لنا فضل فى الايثار. ونحن جبناء وأثرون أيضاً دون أن يكون

علينا فى الجبن والإيثار لوم ، إنما نقدم أو نحجم لأننا ندفع إلى الاقدام أو نرد إلى الإحجام ، لانرى من هذا ولا ذاك بدا . ذهبت بالقياس إلينا كل فلسفة وانحلت بالقياس إلينا كل قاعدة ، وأرسلت نفوسنا على سجيتها ارسالا . فنحن ننتهز الفرصة حين نظفربها ونستمتع باللذة إلى أبعد غاية الاستمتاع حين تتاح لنا ، لا نحاسب أنفسنا ولا نسألها . وفيم الحساب والسؤال ونحن لانفكر فى العاقبة لأن فكرة العاقبة قد محيت من نفوسنا محواً . وما التفكير فى العاقبة وما السؤال عنها ؟ ونحن نراها ساعية الينا مشرفة علينا . قد زلزلت الأرض من حولنا زلزالا . أليست هى فى هذا الموت الذى يسعى الى باريس ويوشك أن يبلغها غدا أو بعد غد ؟

لست أدرى إلى أى عاقبة تنتهى هذه الحرب ولست أدرى لمن سيتاح النصر ، وعلى من ستقدر الهزيمة ؟ ولكن الذى لا أشك فيه هو أن النـاس سيقضون أيام الحرب والأعوام التى تليها متأثرين بالغرائز أكثر مما يتأثرون بأى شىء آخر ، مهدرين لما عرفوا من قيم الأشياء اهداراً ، مزدرين

لما ألفوا من المثل العليا وما أرى إلا أنهم سينفقون دهراً متمردين على العقل والخلق واجدين فى هذا التمرد أقصى اللذة وأقصى الألم.

لست أدرى أتفهم عنى، فقد ألقت الظروف بينك وبينى حجبا كثافا صفاقا. لعل الكلام لا ينفذ عنها ولعل العقول لا تتصل من دونها. أنت آمن وأنا خائف، أنت هادىء وأنا مضطرب. أنت لا تخشى الموت وأنا أراه يسرع إلى وإلى ما حولى ومن حولى فى غير ريث ولا أناة. كم أحب لك أن تعبر البحر لتقرب من ميدان الخطر أو لتسمع حديث الذين دنوا من هذا الميدان، أو ألموا به ثم ردوا عنه، فمهما تكن المدينة التى سترسل اليها بعد أشهر فستكون فيها قريبا من المئات والآلاف من هؤلاء الجرحى الذين يوزعون توزيعا على ما أقيم فى فرنسا من المستشفيات، وستسمع من هؤلاء أومن الذين يتصلون بهؤلاء أنباء الموت وأحاديث الحرب، وستفهم أنها خليقة أن تغير فى الحياة رأى الأحياء. أين أنا؟ وماذا كنت أريد أن أقول لك حين بدأت هذا الكتاب؟. لقد أنسيت مكانى

وأنسيت بدء الحديث، وهأنذا ألتفت عن يمين وشمال فأعرف المكان الذى أنا فيه والذى أكتب اليك منه . إنها هذه القهوة التى يألفها الأدباء فى حى مونبرناس، والتى تعودت أن أختلف اليها وأجلس غير بعيد من أنديتهم ومجالسهم لأراهم حين يقبلون وحين ينصرفون، ولأسمعهم حين يديرون بينهم هذه الدعابة الحلوة، وهذه الفكاهة ذات الأجنحة. وحين يتناشدون الشعر، ويتبادلون الرأى فيه حول أقداح الابسنت إذا دنا الظهر أو أقبل الليل. وحول كؤوس "الكونياك" وأقداح القهوة بعد الغداء وبعد العشاء. إنى لأعرف نفسى فى هذه القهوة التى كانت وقفاً أو كالوقف على أدباء الحى "اللاتينى". ولكنى اختلف اليها منذ أيام فلا أرى فيها حلق الأدباء ولا أنديتهم، وانما هى مزدحمة دائماً تكتظ بمقبلين عليها من كل صوب. قد اختلطوا أشد الاختلاط وتباينت صفاتهم أشد التباين، وهم يلمون بالقهوة لا يطيلون فيها المقام انما يلتقون ويفترقون، ويصيبون بعض ما يحتاجون اليه من شراب بارد أو حار، ثم يمضى كل منهم لوجهه. ومن يدرى لعلهم لا يعودون

الى هذه القهوة أبدا . ومن يدرى لعل الذين يلتقون فيها لا يلتقون بعد هذا اليوم أبدا ، وباريس كلها فى هذه الأيام تشبه هذه القهوة يلتقى فيها الناس سراعا ويفترقون سراعا . كلهم معجل وكلهم قلق وكلهم يستقبل الساعة التى هو مقبل عليها غير حاسب للساعة التى تليها حسابا، لأن حساب الساعات لم يبق فى أيدى النـــاس وانما صار الى يد «أم قشعم» . ألستم تزعمون ان أم قشعم هى الحرب . تعال أيها الصديق فانظر اليها وابل سلطانها على النفوس فسترى وستسمع وستحس أشياء لا صلة بينها وبين ماتقرأ فى شعر زهير .

وداعا أيها الصديق لقد ذكرت الآن فيما أقبلت الى هذه القهوة . فهذه ألين تقبـــل على مبتسمة فى هذه الأيام التى لا يفهم فيها الابتسام . وأنا أبسم لها ولا تسألنى عن ألين فالله قد نهاكم أن تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم . وما أحب أن أسوءك بحديث ألين . فيكفى أن تعلم أن صديقك الذى كان جاداً كل الجد ، منصرفاً إلى الدرس كل الانصراف قد فارق اللذة وطلق الحب وقطع الأسباب كلها بينه وبين حميدة

وفرتند . يكفى أن تعلم أن صديقك هذا قد فارق الجد وقطع الأسباب بينه وبين الدرس ، ووصل الأسباب بينه وبين إلين ولن أحدثك عنها ما دامت هذه الأسباب موصولة. فاذا انقطعت فسيطول بينك وبينى الحديث . فأنت تعلم أنى لا أحدثك عن رضاى حين أرضى ، وإنما أحدثك عن شقائى حين أشقى . فتمن لى الشقاء إن حرصت على أن أتحدث إليك .

وداعاً أيها الصديق إن إلين تضيق بانصرافى عنها إليك ولئن مضيت فى هذا الحديث لتمزقن كتابى إليك تمزيقاً . فلأنصرف عنك إليها ولأستقبل معها حياة المساء فى باريس المضطربة فمن يدرى عما يسفر لنا الصباح .

— ١٧ —

ديسمبر فى . . . .

وكذلك عبرت البحر فى أيام الحرب وفى فصل الشتاء ولقيت من عبوره هذا الشر العنيف الذى خلقته لنفسك خلقا. وخيلته إليها تخيلا أيها الصديق . فما كانت سفينتك

معرضة لخطر الغواصات ولو عرفت الجامعة أنكم تتعرضون لهذا الخطر ما أرسلتكم إلى فرنسا، فهى حريصة على حياتكم حرصاً شديداً. وما كانت سفينتك على صغرها وطول العهد عليها معرضة للغرق ولا لأن تحطمها الأمواج. فلو كانت تعرض لشيء من ذلك لما أذن لها بالعمل فى البحر وإنما أنت رجل من أبناء الريف لا تعرف المخاصرة ولا المغامرة فكل جديد عندك خطير، وكل مشقة عندك مشرفة بك على التهلكة

وها أنت ذا قد نجوت من الغرق فلم تنسفك غواصة ولم يطغ الموج على سفينتك، فانعم بهذه النجـــاة وانعم بالوصول إلى فرنسا والاستقرار فيها والاختلاف إلى جامعة مونبلييه وانعم بما قدر للفرنسيين من نصر، فلن يبلغ الألمان مونبلييه وأنى لهم أن يبلغوها، وهم قد ردوا عن باريس كما علمت رداً عنيفاً. وهم قد اضطروا إلى هذه الحياة التى يحيونهـــا فى الخنادق ينتظرون أن ينحسر الشتاء ليستأنفوا الهجوم وينتظر عدوهم من الفرنسيين أن ينحسر الشتاء ليستأنفوا الدفاع العنيف ويخرجوهم من أرض الوطن اخراجاً.

اهنا بهذا الأمن فى مونبليه وان كنت لا افهم لِمَ وجهتكم الجامعة اليها وصرفتكم عن باريس . فليست باريس أقل أمنا من مونبلييه بعد أن رد الألمانيون عنها رداً وقد كسرت حدتهم وفلت عزائمهم . فلن يبلغوها بعد اليوم مهما تتح لهم القوة ومهما يواتيهم الحظ . ولكنكم قوم تحسنون الاحتياط وتغلون فيه وتتجنبون حتى مظنة الخطر . فلتنعموا بما أتيح لكم من هذا الحذر الذى لن يغنى عنكم من الله شيئاً . ولكنى أحب لك ألا تخدع نفسك بالأمانى ولا ترسلها مع الغرور ولا تخيل اليها أنك تعيش فى فرنسا تلك التى عرفناها قبل الحرب ، فان فرنسا تلك ليست فى المدن ولا فى الأقاليم ولا فى باريس . وإنما هى فى ميدان القتال تواجه الموت وتبسم له بعد أن كانت من قبل تواجه الحياة وتبسم لها . ستسمع العلم ولكن من أساتذة شيوخ عجزوا عن حمل السلاح إلى الحرب فأقاموا فى الجامعة يعلمون . وستختلف إلى الدروس ولكن مع طلاب من الغرباء لاحظ لهم مما كان يملأ نفوس الفرنسيين من فرح ومرح ونشاط ، ستعيش فى بيئة مظلمة مكفهرة فيها أمل

ولكنه بعيد وفيها خوف ولكنه قريب. فيها أمل فى فوز فرنسا وفيها خوف على أبناء فرنسا. وفيها يأس لاذع يتردد بين ذلك الأمل وهذا الخوف. والحياة فى هذه البيئة لا تخلو من لذة وعبرة ومتاع؛ ولكنك لا تستطيع أن تبلوها كما ينبغى لأنك لم تر فرنسا الفرحة المبتهجة الآمنة لتقيس اليها فرنسا المحزونة المكتئبة الخائفة. أفرغ اذن لعلمك ودرسك، وأمنح أكثر وقتك للكتب وأجل معرفة فرنسا إلى حين، فانك لن تعرفها حق المعرفة إلا بعد أن تضع الحرب أوزارها، ومتى تضع الحرب أوزارها؟...

ما كنت أظن أن حب الاستطلاع يسيطر عليك إلى هذا الحد، فقد ذهبت فيما زعمت لى إلى فندق جنيف حين انتهيت إلى مرسيليا، وكنت تظن انك ستلقى فيه فرنند. ويحك وهل تبقى فرنند فى فندق واحد كل هذا الأمد البعيد. من يدرى أين فرنند بعد ما مضى من الزمن، وبعد ما اضطربت شؤون فرنسا وشؤون الأرض كلها هذا الاضطراب. وماذا كنت تريد إلى فرنند؟ وعما كنت تريد أن تسألها؟ لقد أنبأتك

بما وسعني أن أنبئك به من أنبائها ، فهل كنت تريد أن تمتحن ذوقي ؟ أم هل كنت تريد أن تعرض نفسك لمثل ما عرضت نفسي له من المحنة . انك لست في حاجة إلى فرنتد ان كنت تريد أن تباو مثل مابلوت ، فأمثال فرنتد كثيرات في كل فندق وفي كل مدينة وفي كل بيئة . فاحذر أن تتعرض لمكرهن وارفع نفسك عن هذا الشر الذي غمست نفسي فيه والذي لا أستطيع أن أخلص منه مهما أبذل من جهد وأتكلف من عناء .

لقد صدق موسيه حين شبه قلب الرجل النقي بالاناء العميق إذا استقر الدنس في قاعه فليس إلى تطهيره من سبيل ، ولو مر به ماء البحر كله . إن قلبي هو هذا الاناء وقد استقر في قاعه هذا الدنس ، ولقد حاولت تطهيره ما استطعت إلى ذلك سبيلا بالتفكر والتدبر ، بالقراءة والدرس ، بالجد والنشاط بهذه المثل العليا التي كنت اتخذتها ، وأجد في السعي اليها ، وأوفق أحيانا في هذا السعي بما حاولت من ارضاء الأساتذة ، بما حاولت من ارضاء مراقب البعثة ، بما حاولت من ارضاء

الجامعة، بما بلغت من هذا كله ولكنى مع ذلك لم أستطع أن أمحو من قرارة نفسى هذا الدنس الذى استقر فيها فلزمها لزوما. واتصل بها اتصالا لا انقطاع له.

لقد خيل إلى فى بعض الأوقات أنى قد خلصت من الشر وبرئت من الاثم وارتفعت عن النقيصة، وأنى قد كفرت بالمرض الطويل الثقيل المهلك عما اقترفت من السيئات، وأنى قد طهرت نفسى بالعلم تطهيرا، وكرمتها بالدرس عن كل ما يفسدها ويشينها، وأخذت اكبر نفسى وأغالى بها ولكننى تبينت بعد ذلك أن الحياة غرور كلها، وأن القضاء نافذ بالغ أجله مهما نفعل ومهما نحاول. وقد عرفت قضاء الله فى أمرى. فأنا رجل موكل بالجد واللهو معا. أبلو اللذة حتى أصل إلى أقصاها، وأبلو الألم حتى انتهى إلى غايته. أقبل على العلم حتى كأنى لم أخلق إلا للعلم. ثم أقبل على اللهو حتى كأنى لم أخلق إلا للهو. أقبل على العلم فلا يصرفنى عنه صارف مهما يكن وأقبل على اللهو فلا يشغلنى عنه شاغل مهما يكن. يتاح لى الغنى ويلم بى الفقر، فلا يمنعنى هذا ولا ذاك من المضى فى العلم

إن كنت مقبلا عليه، ولا من المضى فى اللهو إن كنت منصرفا إليه . وقد عرفت ألين — إن كنت تذكر إلين — من أمرى هذا كله فقبلته منى، وجارتنى فيه وأخذت إن رأتنى مقبلا على العلم تهملنى حتى كأنها لم تعرفنى قط، وإن رأتنى مقبلا على اللهو تعنى بى حتى كأنها لم تعرف غيرى قط . وأنا ياسيدى كما ترى لعبة تتقاذفها معاهد العلم ومنازل اللهو . وقد بقى لى شىء من إرادة فأنا أنفقه فى تنظيم أمرى على وجه ما . وأود لو استطعت أن ألائم بين هذين العدوين اللذين يختصمان فى اختصاما، وأود لو استطعت أن أقسم وقتى وجهدى بينهما قسمة عادلة فللعلم شطر منهما وللهو شطر آخر . فمن يدرى لعلى إن وفقت إلى هذه القسمة أن أصلح مزاجى بعض الاصلاح وأن أنظم أمرى بعض التنظيم، وأن أنتهى إلى نتيجة أرضاها وأرضى بها من لابد أن أرضيهم من الناس . وقد أخذت فى هذه التجربة منذ أسابيع وأنا أبذل فيها جهدا عنيفا والقى فيها شططا شديدا وأخشى كل الخشية ألا أوفق إلى شىء . لقد أخذت أدرس اللاتينية ورتبت نظام الدرس مع الأستاذ ترتيبا رضيه وأقره

فلما أخذنا فى تنفيذ ما اتفقنا عليه لم نجد إلى ذلك سبيلا ، ولو أنك سألته عنى لأنبأك فى يأس وحزن بأنى أكسل الناس وأنشط الناس . وبأنى أقدر الناس على العمل وأعظمهم حظا من التوفيق ، وبأنى أعجز الناس عن الجد وأعظمهم نصيبا من الخيبة . أما فى أول أمرنا فقد كان لايزورنى إلا وجدنى مستعدا للقائه متهيأ لدرسه . وكان يزعم لى أنى سأتقدم للامتحان فى وقت قريب ، وسأفوز فيه فوزا مبينا . ثم تمضى أسابيع ، وإذا أنا قد صرفت عن العلم ودفعت إلى اللذة ، وأفلت من السوربون ولزمت ذراعى ألين ، ويزورنى الأستاذ للدرس مع الظهر فيجدنى مغرقا فى النوم لأنى أفنيت الليل ووجه النهار فى اللهو والعبث والمجون . فيستيئس اذا تكررت زيارته فى غير جدوى .

ولكنى أفرغ له بعد حين فأسعى إليه وألح عليه وأعوض مافات وأصلح ما فسد ، وأرضيه بعد سخط ، وعلى هذا النحو تمضى حياتى منذ حين ، ولم يزدها شبوب الحرب إلا مضياً فى هذا النحو من الفساد والاضطراب ، فقد محت الحرب من

نفسي كل ثقة وذادت عنها كل يقين، وأهدرت فيها كل قيمة للعمل والأمل والحياة. فأنا أحيا لغير شيء أو قل أنا لا أحيا وإنما أنتظر شيئاً مجهولا لا أعرفه ولا أريد أن أعرفه، ولو قد أردت لما استطعت. وأنا أنتظر هذا الشيء المجهول، كما أستطيع أن أنتظره مستعيناً عليه بالعلم والجد حين أفرغ للعلم والجد، وباللهو والعبث حين أنقطع للهو والعبث. وقد يتاح لي أن أفكر في ذلك، وأن أمتحنه وأحاول أن أتعرف أسبابه. فأشعر بأن نشأتي في مصر هي التي دفعتني إلى هذا كله دفعاً وفرضت هذا كله على فرضاً، لأني لم أنشأ نشأة منظمة ولم تسيطر على تربيتي وتعليمي أصول مستقيمة مقررة، وإنما كانت حياتي مضطربة كلها أشد الاضطراب تدفعني الى يمين وتدفعني الى شمال وتقف بي أحياناً بين ذلك. ولو أني بقيت في مصر لأنفقت حياتي كما بدأتها في هذا الاضطراب المتصل في غير نظام والى غير غاية، ولكني عبرت البحر إلى بيئة لا يصلح فيها الاضطراب، ولا تقوى على الحياة فيها نفوسنا الضعيفة المضطربة فلم أحسن لقاءها ولم أحسن احتمال الأثقال فيها ولم

أحسن الخضوعَ لما تفرضه من نظام واضطراد. ثم كانت الحرب واضطربت الدنيا وأضيف فى نفسى فساد الى فساد واضطراب الى اضطراب، ففقدت نفسى محورها — ان صح هذا التعبير — وأصبحتْ لعبة تتقاذفها الأهواء.

ما أشد حاجتى الى قربك أيها الصديق. فقد تقدر على أن تنفعنى، ولكنى لا أستطيع أن أفر اليك من باريس فالموت أهون علىَّ من ترك باريس. ولا أستطيع أن أنقلك الى حيث أنا فالجامعة تحول بينك وبين هذا الانتقال، وانى مع ذلك لا أخشى على نفسى كل شىء وانى مع ذلك لأظن أنى لن أعود الى مصر ان عدت اليها سالماً موفور العقل مستقيم الملكات قادرا على النفع والانتاج.

فلينفذ القضاء اذن ولتتم كلمته فلئن ذهبت فى غير نفع فما أكثر الشبان الذين يذهبون فى غير نفع هذه الأيام.

- ١٨ -

يناير فى ....

ان ظننت أيها الصديق أن فىّ بقية من عقل ، أو فضلا من ارادة فانف عن نفسك هذا الظن نفياً ، فالبرهان يقوم لى كل يوم على أنى أسعى الى الجنون فى سرعة تزداد بين حين وحين كما تزداد سرعة السقوط بالجسم الذى يهوى الى الأرض بين ثانية وثانية . فان كنت فى شك من ذلك فاعلم أنى أنفقت فى القراءة وفى القراءة وحدها أجازة عيد الميلاد ورأس السنة. وبينما كان الناس ينصرفون الى ما ينصرفون اليه فى هذه الأيام التى هى أيام بهجة وعيد عادة ، والتى يشوبها الحزن والألم ، هذه المرة كنت أنا عكفاً على «سيسيرون» و «تاسيت» قراءة وفهماً وترجمة . وكنت أجد لذة فى هذه الليالى التى أنفقها من وراء الباب مع الكتاب القدماء والشعراء القدماء ، على حين يحيا الناس حياتهم ويجدون فيهاما يجدون من اللذات والآلام .وقد أنسيت كل شىء وأنسيت كل انسان ولولا أن الخادم كانت تحمل

بيني وبين ألين في هذه الأيام التي كان يجب أن تقوى فيها الصلة وتكون بمأمن من الضعف والفتور .

ثم انقضت الأجازة وجعلت أختلف الى السربون ومضيت في ذلك أياماً ، وذهبت صباح اليوم الى السربون فسمعت درس اللاتينية وظفرت بثناء الأستاذ ، وخرجت ولكني لم أذهب الى بيتي وإنما ذهبت الى حيث ألقى ألين وقد لقيتها وأنفقت معها اليوم بعيداً عن باريس في غابة من هذه الغابات الجميلة القريبة ، ثم عدنا ولم نفترق إلا لنلتقي بعد قليل . وأنا أختلس هذه الدقائق لأكتب اليك ولأظهرك من أمري على أطوار هذا المرض الذي يسعى إلى ، أو يسعى في سعياً حثيثاً ، وثق بأن السربون لن تراني غداً ولا بعد غد بل ثق بأني لا أعلم متى تراني السربون .

وداعاً يا سيدي إني لأرى شبح الجنون بغيضاً مزعجاً ولكني مع ذلك لا أهابه ولا أتأخر عنه وإنما أقدم عليه إقدام المحب الجريء ، وكيف أحجم عن الجنون وقد اتخذ لنفسه صورة ألين .

— ١٩ —

يوليو فى . . . .

لم يكن الامتحان عسيراً ومع ذلك فقد أخفقت فيه أجمل اخفاق وأروعه . هذا الاخفاق الذى لا يظفر الطالب فيه بدرجة أو بعض درجة، وانما يظفر فيه بالصفر المريح . ولن تعلم الجامعة من أمر هذا الامتحان شيئاً . فقد تقدمت اليه سراً فلن أؤدى لها حساباً عن مال لم تنفقه وأمر لم تحط به علماً . لم أكن أشك فى الفوز فقد وعدنى به أستاذى الخاص الذى أتعلم عليه اللاتينية، ووعدت نفسى به وتهيأت له كأحسن ما يتهيأ طالب للامتحان، ولكن أدركتنى نوبة المرض أو نوبة اللهو، ان أردت الدقة فى التعبير، قبل موعد الامتحان بأسبوعين فقضيت هذين الأسبوعين مع ألين نهيم فى الغابات اذا كان النهار، ونطوف على الحانات اذا كان الليل ولا نلم بالبيت الا مطلع الفجر .

وكانت ألين تذكرنى بموعد الامتحان وتحذرنى عاقبة هذا الجنون وتصور لى جمال الفوز وتمنينى تلك الأيام الجميلة

التي سننفقها بعيدا عن باريس إذا كان الصيف. ولكني كنت أعرض عنها أشد الاعراض وأزجرها أشد الزجر. فقد كان شيطان اللهو قد ملأ قلبي ونفسي وركب كتفي.

ثم أصبح يوم الامتحان فلا أتردد في الذهاب إلى السوربون ولا في دخول حجرة الامتحان وآخذ النص اللاتيني فاقرأه وأقرأه، ثم أقرأه وأقرأه، فلا أفهم شيئا ولا أصنع شيئا. وأنا أبذل جهدا عقليا عنيفا لعلي أوفق إلى فهم جملة او بعض جملة فاذا لم أظفر بشيء رددت النص كما أخذته وانصرفت إلى بيتي راضيا محزونا معا. ثم لا أكاد أخلو الى هذا النص بعد ذلك بساعة أو ساعتين حتى أفهمه في غير مشقة وأترجمه في غير جهد واستوثق من انى كنت خليقا أن أفوز وإذا قلبي يمتلأ سرورا وبهجة، وإذا أنا أسرع إلى ألين فانبؤها بأني جمعت بين الفوز والاخفاق معا.

وداعا ياسيدي سأنجح في نوفمبر اذا لم يدركني الشيطان. فاما الآن فالى اللهو والى اللهو المجنون الذي لا يعرف رفقا ولا مهلا ولا تفكيرا، الى اللهو حتى يضعف العقل والجسم

معا وحتى اضطر الى الراحة ثم الى الجد اضطرارا .

—٢٠—

سبتمبر في . . . . .

وإذن فقد زرت فرنسا وأقمت فيها وستعود إلى مصر ولم يكن بينك وبيني هذا اللقاء الذى كنا نرجوه . ولست أدرى أيسوءك هذا أم لا يسوءك ولكني أعلم أنه يسوءني . حقا فقد كنت حريصا على لقائك لأراك بعد أن طال افتراقنا وقد كنت حريصا على لقائك لاستعين بك على نفسي وعلى ما يدهمها من الأحداث والخطوب . ولكن الجامعة أبت أن نلتقى وأبت الظروف أن تطول اقامتك فى هذا البلد حتى تتاح لنا فرصة اللقاء . وانى لأرجو أن تتاح لك عودة قريبة فما أرى أنك قد زرت فرنسا ولا انتفعت بزيارتها وما أظن الا أنك ستعود وفى نفسك حسرات لا تنقضى فليس من الهين ان تدنو من الغاية ثم ترد عنها ردا ولا أن تشارف الأمل ثم تقطع بينك وبينه الأسباب . ولست فى حاجة إلى أن انبئك بأنى قد رفضت الاذعان لأمر الجامعة وأبيت أن

اعود فى هذه المرة كما أبيت ذلك فى العام الماضى . وكيف تريدنى على أن أعود وقد أنفقت اعواما فى فرنسا ثم لم أصنع شيئا تحسن العودة به والاطمئنان اليه وإنما كان حظى من الفساد والشر أكثر من حظى من الصلاح والخير . وماذا تريد أن أقول حين أعود إلى مصر فاسأل عما صنعت . أأحدث الناس عن فرنند وألين وما لقيت عندهما مما أحب وما لا أحب أم أحدث الناس بذلك المرض الذى ألح على جسمى حتى أشرف بى على الموت أم أحدثهم بهذا المرض الذى ألح على عقلى حتى أشرف بى على الجنون .

لا ياسيدى إن العودة إلى مصر شىء لم يقدر لى بعد ولو انى بلغت من مقامى فى فرنسا كل ما اريد لما رضيت هذه العودة ولا أجبت اليها فانت تعلم أنى قد نذرت ألا أترك باريس حتى أصير الى ما تصير اليه وحتى أرى مخرجها من هذه الحرب كيف يكون . وما أبعد الأمد بيننا وبين آخر الحرب كما ترى . فالأسباب مقطوعة بينى وبين مصر حتى تنكشف هذه الغمة . وهب كل شىء يجرى كما أحب فكيف

أعود إلى مصر دون أن اصطحب ألين وليس لى إلى الحياة سبيل إذا لم أكن قريبا من ألين أراها متى شئت وترانى متى أحبت وأفزع اليهـــا حين أضيق بحياة العمل والجد . وألين فرنسية لا تريد أن تهجر وطنها ولا أن تفارق باريس وان أعطيت ملء الأرض ذهبا . فاقامتى فى فرنسا قضاء محتوم لا مندوحة لى عنه وشهد الله ما أجد لذلك ألما وانما أجد فيه اللذة كل اللذة فاقرأ تحيتى على مصر إن شئت ولا تحدث أصحابنا بشىء من أمرى وإن سألك أهلى عن بعض أمرى فقل لهم مايخطر لك ولكن احذر أن تنبئهم من حقيقة أمرى بشىء . فما ينبغى أن نشق على هذين الشيخين وما ينبغى أن نشمت بنا الشامتين .

وبعد فان أمور مصر محزنة حقا ، أليس مما يسوء ويحزن أن يعجز هذا البلد السعيد الناعم بالسلم ومنافعها عن أن يمد الجامعة من المال بما يمكنها من استبقاء بعوثها فى أوروبا حتى تتم ما أرسلت من أجله .

أو ليس مما يحزن ويسوء أن نرى هذه الجهود الضخمة

الشاقة التي تبذلها الشعوب الصغيرة لتثبت للحرب وتحتمل أثقالها ونفقاتها وتضحى ، فيهـــا ما تضحى به من الأنفس والأموال وأن نرى مصر عاجزة أو بخيلة لا تستطيع أو لا تريد أن تنفق على عشرة من أبنائها يدرسون العلم فيما وراء البحر . ولكن ماذا ينفع الحزن والأسى وماذا يجدى اللوم والتقريع لابد مما ليس منه بد . عد الى مصر فانت مضطر إلى أن تعود ولأبق أنا فى فرنسا فانا مكره على أن أبقى وسنرى أيتاح لنا أن نلتقى وأين يتاح لنا أن نلتقى .

وداعا أيها الصديق وإن لم يكن بيننا لقاء .

—٢١—

وأعود إلى باريس بعد ثلاثة أشهر قضيتها فى القاهرة فأرى صاحبي ولكنى لا أكاد أعرفه لولا صوته الذى لم يتغير ولولا ضحكاته العراض التى لم تهذبها الاقامة فى باريس فاما غير ذلك من أطوار نفسه فقد تغير حتى أنكرته أشد الانكار . فصاحبي محزون مغرق فى الحزن حتى ليفسد عليك رأيك فى الحياة إن لقيته فى هذا الطور . وصاحبي مسرور

مغرق فى السرور حتى ليثير فى نفسك الاشفاق عليه من هذا الاغراق فى السرور إن لقيته فى هذا الطور أيضا. وصاحبى ينتقل من الحزن إلى السرور ومن السرور إلى الحزن فجأة فى غير تهيىء ولا تدرج ولا انتظار لهذا الانتقال وإنما أنت مع رجل بائس يائس سيء الرأى فى الحياة والأحياء قد أظلم كل شيء فى وجهه وفى نفسه فاست تسمع منه إلا شرا ونكرا. وإذا أنت ترى هذا الرجل وقد وثب فجأة من نقيض إلى نقيض وأصبح فرحا مرحا منطاق اللسان بالثناء على كل أحد وعلى كل شيء ممتلىء الفم بهذا الضحك المزعج العريض، لا يتكلم هادئا ولا يتحرك هادئا وإنما هو عنيف فى لفظه عنيف فى حركته عنيف فى كل شيء حتى أنه ليلفت إليه وإليك الناس وحتى إنه ليخفيك من أن ينكر الناس مكانكما ويدعوكما إلى الصمت وإلى إيثار الهدوء.

وصاحبى إن حزن لا يعدل بالكتاب شيئا، وصاحبى إن سر لا يعدل بالشراب شيئا. وهو مسرف فى صحبة الكتاب يأخذ المجلد الضخم فلا يكاد ينصرف عنه حتى يزدرده

ازدرادا . وصاحبي مسرف فى الشراب إذا أقبل عليه الليل لم تكفه الزجاجة ولا الزجاجتان من معتق النبيذ ، وإنما هو يشرب حتى يعجز عن الشرب . وهو لا يعجز عن الشرب إلا حين تعجز يده عن تناول الزجاجة وصب شيء من روحها فى القدح . وإذا انتهى العجز بصاحبي إلى هذا الحد لبث مكانه لا يريم نائما كالمستيقظ ومستيقظا كالنائم حتى تنجلى عنه الغمرة بعد ساعات . وصاحبي يختلف إلى السوربون قليلا ولا يكاد يختلف إلى القهوة ولكنه يلزم بيته فى أكثر الوقت وقد يستخفى اليوم أو الأيام لا نعلم أين هو . ثم نلقاه فنسأله فينبئنا بأنه كان مع ألين . ولم يتح لأحد من أصحابه ولم يتح لى بالطبع أن نرى ألين هذه أو نسمع منها أو نتحدث إليها حتى لقد كان يخيل إلينا أنها شخص من أشخاص الأساطير قد خلقه صاحبنا لنفسه خلقا فى وقت من أوقات سكره ولهوه ولكنه كان يحدثنا عنها فيطيل الحديث . وكانت أحاديثه لا تصور شخصا مخترعا وإنما تصور شخصا حيا يذهب ويجيء ، ويعبث ويلهو ويعين على العبث واللهو ويدفع إليهما أحيانا وكثيرا ما ألححنا

على صاحبنا فى أن يعرفنا إلى ألين أو يعرفها إلينا فلم نكن نلقى منه إلا إباء وإعراضا . وكان يقول إن حب الاستطلاع إثم ، فما تريدون إلى ألين . إنى أحدثكم من أمرها بما يعنيكم وما لا يعنيكم وألين صاحبتى أنا لا صاحبتكم أنتم ولن يكون لكم منها إلا هذا الذى تسمعون عنها ، وإنه لكثير أكثر مما ينبغى . وكثيرا ما جد بعض أصحابنا فى تتبعه والبحث عن ألين فلم يظفر بطائل ولولا أنى رأيت ألين بعد ذلك لما شككت فى أنها كانت شخصا من أشخاص الخيال .

وقد أنفقنا عاما دراسيا كاملا على هذا النحو ألقى صاحبى بين حين وحين فأنكر من أمره أكثر مما أعرف ، ولا تتصل بينه وبينى تلك الأحاديث التى كانت تتصل بيننا فى القاهرة والتى كانت لا تنقضى وإنما تلتوى وتعوج وتخرج بنا من موضوع الى موضوع ومن رأى إلى رأى حتى أضرع إليه فى أن يقفها لأنه أعيانى وأجهدنى حقا .

لم تكن تتصل بيننا هذه الأحاديث فى باريس إنما كان يلم بحديث السوربون قليلا ويطيل الحديث عن ألين مثنيا

عليها حينا ، شاكيا منها حينا آخر ، واصفا محاسن جسمها ومحاسن نفسها دائما.

ثم يفرق الصيف بيننا ، فأذهب أنا الى الجبل ويقيم هو فى باريس لا يكاد يفارقها إلا الى ضاحية من الضواحى أو غابة من الغابات ينفق فيها النهار أو بعض النهار مع ألين .

ثم أعود الى باريس آخر الصيف وقد قدمت إليه النبأ بعودتى فاذا بلغتها لم ألقه ، فاذا انتظرته لم يسع إلى ولكن صاحبة الباب تصعد إلى ذات صباح وتدفع إلى قطعة من الورق ما أشك فى أنها قد اقتطعت من علبة من علب السجائر وقد كتب عليها بخط مضطرب هذه الكلمات « صديقك مريض ينتظر عيادتك » .

فأسرع إليه فأراه . ويا شر ما أراه . أرى صاحبي مريضاً لا تظهر عليه آثار المرض ، ولكنه مؤمن كل الايمان بأنه مريض . لا يشكو شيئاً ولكنه واثق كل الثقة بأنه مريض . قد عرض على الأطباء فلم ينكروا من صحته شيئاً ولكنه مقتنع كل الاقتناع بأنه مريض وبأن الأطباء مخطئون . ولا أكاد أتحدث

إليه وأتبسط معه فى الحديث حتى أستيقن أنا أيضاً أنه مريض وأن مرضه أخطر جداً مما يظن ومما كنت أقدر فقد انتهى إلى الجنون الذى كان يخشاه أو إلى شىء قريب جداً من هذا الجنون .

كان يتحدث إلى فى أمر السربون أو فى أمر ألين فيستقيم الحديث استقامة حسنة ولكنه لا يكاد يسمع فى الجو أزيز الطيارة — وما كان أكثر ما يسمع أزيز الطيارات فى باريس — حتى ينهض بل يثب ويهم بالخروج فاذا سألته ما خطبه أجاب ألست تسمع أزيز هذه الطيارة فانه دعاء لى إلى الخروج .

وكان قد استقر فى نفسه أن الصحف الفرنسية كلها مجمعة على مقته وبغضه والكيد له . وكان يشترى منها أكثر ما يستطيع شراءه وينفق فى قراءتها أكثر وقته ليتبين هذا الكيد الذى تكيده له . وهذا المكر الخبيث الذى تمكره به ولم يكن يلقى فى ذلك كبير جهد فقد كان هو ألمانيا وكان كل ما تذكره الصحف عن ألمانيا موجهاً إليه ومنصباً عليه انصباباً . وكان يؤذيه من أمر هذه الصحف أنها لا تعرف له

حبه لفرنسا ووفائه لباريس وإقامته فيها حين تفرق عنها الناس. ما أشد جحود الفرنسيين للجميل وكفرهم لصداقة الصديق.

ثم يعظم الأمر قليلا قليلا واذا الحلفاء جميعاً يمكرون به ويكيدون له ويدبرون له السوء. ولم لا ؟ أليس الحلفاء يحاربون ألمانيا وهو ألمانيا. وأصبح ذات يوم مرتاعاً حقاً فقد جاءه النبأ ولست أدري كيف جاءه، ولا من أين جاءه، بان الحلفاء يأتمرون به لينفوه إلى المغرب الأقصى. وهو ينبئني بأنه قد جد فى السعي لصرف الحلفاء عن هذا الأثم العظيم والظلم القبيح فكتب إلى جماعة من أساتذته فى السربون والى جماعة من كبار الساسة فى مجلس النواب والشيوخ يقص عليهم القصة ويستعينهم على اتقاء هذه الكارثة وهو ينتظر ردهم عليه ولكنه ضيق بباريس هذه الخائنة الماكرة التى لاتعرف جميلا، ولاترعى حقاً، ولا تحفظ ود الصديق، والتى هى فى حقيقة الأمر صورة صادقة لهذه الفتاة الخائنة التى كانت تسمى ألين والتى قد جحدت حقه ونسيت مودته

وأعرضت عن حبه اعراضا وأخذت تكيد له مع الكائدين وتمكر به مع الماكرين . وهو يلح على فى أن يفارق باريس وينتظر الرد على كتبه فى مدينة أخرى أقل خيانة وغدراً من من هذه المدينة الخائنة الغادرة التى يسكنها الخونة الغادرون . والطبيب الذى يعوده لا يرى بأساً بأن يفارق باريس ويقيم فى مكان معتدل الهواء كثير الشجر . وما هى الا أن يستقر صاحبى فى أحد الفنادق غير بعيد من باريس فى طرف غابة من الغابات ومن هذا الفندق تصدر رسائله التى لا تنقضى الى أساتذة السربون والى رجال وزارة الخارجية والى أنا . ويالها من كتب تلك التى كانت تنتهى الى فى الصباح والمساء من كل يوم . حسبى أن أثبت منها هذا الكتاب القصير .

نوفمبر فى . . .

لم يبق لى أمل ولا شىء يشبه الأمل أيها الصديق فقد أجمع الحلفاء أمرهم وأمضوا عزيمتهم لا يقبلون فى ذلك مراجعة ولا شفاعة بل هم قطعوا على الشفاعة كل طريق ، فأفسدوا على حتى أساتذة السربون الذين كانوا يحبوننى

ويؤثروننى أشد الأيثار . فهؤلاء الأساتذة يتلقون رسائلى فلا يردون عليها وأكبر الظن أنهم قد عرفوا خطى فهم لا يقرأون كتبى اذا انتهت اليهم . والغريب أن أحدهم فلانا . . . كان قد امتلأ قلبه حباً لى واعجاباً بى حتى قبل ما عرضت عليه حين خطبت اليه ابنته . وهذه الخطبة هى التى غاظت ألين فصرفتها عنى . ولست أدرى من أبلغها أمر هذه الخطبة التى كانت سراً الا أن يكون هذا الصديق الماكر الذى تعرفه فقد شربت معه ذات ليلة وتبسطت فى الحديث . فلما أصبحت انتهت الى رسالة القطيعة من ألين .

وألين من غير شك هى التى أفسدت علىّ قلوب الحلفاء وصورتنى لهم فى صورة العدو الخطر المخيف . وهى التى زينت لهم نفيي إلى المغرب الأقصى . يا لغيرة النساء ، ويا لكيد النساء . ويا لضعف الرجال ، ويا لسذاجة الرجال ، وإن كانوا أساتذة فى السوربون أو ساسة محنكين . لم يبق لى أمل فى عفو الحلفاء . عفوهم عن ماذا ؟ وهل جنيت عليهم ذنبا أو أقترفت فى ذاتهم إثما . لقد كنت أدافع عنهم فى كل

فرصة وأذود عن حقوقهم بالقلم واللسان ولكنهم قد أجمعوا أمرهم على نفي، وأنت وحدك القادر على حمايتي ووقايتي من هذا النفي، وماذا تريد أن أصنع في المغرب الأقصى. أليست مصر أولى بي أو نست أنا أولى بمصر. إن في مصر حميدة وإن في فرنسا ألين، وجوار حميدة على بغضها لي أهون على من جوار ألين، فان حميدة لم تؤلب على، ولم تكد لي، وانما تلقت إساءتي اليها بالصبر والعفو. أما ألين فقد تلقت احساني اليها بالجحود والعقوق. فلا مقام لي في هذا البلد ولا سبيل الى الرحيل الا أن تعينني عليه وأن تحكم تدبيره احكاما. فعيون الحلفاء يقظة لا تنام وجواسيسهم منبثة في المحطات والثغور ولست أدري كيف تريد أن تدبر الأمر ولكني معتمد عليك في اخراجي من هذه الأرض، وأنا مستعد للتنكر فيما شئت من الأشكال والأزياء حتى أبلغ مصر. فاذا وضعت الحرب أوزارها وتبين للحلفاء أنهم قد ظلموني حين ساءوا الظن بي وسمعوا في وشاية الوشاة فمن يدري لعلى أعود الى فرنسا فأتم درسي في السربون وأقترن الى هذه الفتاة التي أحبها

حبا لاحد له والتى قد رضينى ابوها لهـــا زوجا والتى كدت أسعد بزواجها لولا ألين، ولولا وشاية هذا الصديق الخائن. صدقنى أن من ضعف الرأى وفساد العقـــل أن تطمئن الى هؤلاء الذين يسمون أنفسهم أصدقاء.

—٢٢—

وتحمل إلى صاحبة الباب ذات مساء حقيبة ضخمة ومعها هذا الكتاب:

سيدى

أنت تعرفنى من غير شك ، فكثيراً ما حدثك عنى صديقك . . . . وكثيرا ما حدثنى عنك وقد صورك لى دائما على أنك أحب أصدقائه اليه، وأوفاهم له، وأحفظهم لسره. فانا أحمل اليك هذه الحقيبة بعد أن أحتفظت بها عاما كاملا لا لأنى كنت أنتظر أن يعود صاحبها الى فقد أيأسنى الأطباء من شفائه بل لأنى كنت أجد الجهد كل الجهد فى فراقها. وفى فراق ما يتصل به من الكتب والمتاع ولكن هذه الأعوام التى نحياها قد علمتنا الأذعان للقضاء والخضوع لما ليس منه

بد ، فاليك هذه الحقيبة ياسيدى فان لصاحبها من أبناء وطنه أهلا وأصدقاء هم أحق منى بما فيها وأجدر أن يفهموه ويقدروه .

وفى بيتى غرفة مغلقة منذ عام فيها كتب كثيرة جداً ومتاع ليس بذى بال فهذه الغرفة طوع أمرك متى شئت أقبلت فأخذت ما فيها ووجهته حيث أحببت .

ولك يا سيدى تحية ملؤها الحزن الذى ما أظن أنه سينقضى أو تهدأ لوعته قبل زمن طويل .

.·.

وقد حفظت هذه الحقيبة بضعة عشر عاماً لا أعرف من امرها الا انها مملوءة بالاوراق ، فلما اتاح الظالمون لى شيئا من فراغ نظرت فى هذه الاوراق فاذا ادب رائع حزين صريح لاعهد للغتنا بمثله فيما يكتب ادباؤها المحدثون . وقد هممت بنشره وقدمت بين يديه هذا الكتاب . ولكن هل تسمح ظروف الحياة الادبية المصرية باذاعة هذه الاثار يوما ما .

مفتاح كنوز السنة

وهو معجم تفصيلي وضع للكشف عن الأحاديث النبوية الشريفة المدونة فى كتب الأئمة الأربعة عشر الشهيرة، وذلك بالدلالة على موضع كل حديث فى صحيح البخارى وسنن أبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والدارمى ، ببيان رقم الباب . وفى صحيح مسلم وموطأ مالك ومسندى زيد بن على وأبى داود الطيالسى ببيان رقم الحديث . وفى مسند أحمد ابن حنبل وطبقات بن سعد وسيرة بن هشام ومغازى الواقدى ببيان رقم الصفحات . مما يمكن الباحث من الوقوف على الحديث المطلوب بغير عناء

وضعه بالانكليزية ا. ى. فنسنك

ونقله إلى العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى

وهو فى أكثر من ٥٤٠ صفحة من القطع الكبير

وثمنه ٦٠ قرشاً مصريا

ويطلب من لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية

ومن جميع المكاتب فى العالم العربى

الاسلام والتجديد فى مصر

ألفه الدكتور تشارلز آدمس — قدم له الأستاذ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الاسلامية بالجامعة المصرية — نقله إلى العربية الأستاذ عباس محمود الماجستير فى الآداب

وهو تاريخ دقيق مفصل للحركات الفكرية والاجتماعية والسياسية والدينية التى قامت فى مصر منذ أن حل بها جمال الدين الأفغانى إلى الوقت الحاضر .

وهو يكشف عن أثر جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى العالم الاسلامى عامة وفى مصر وكتابها ومفكريها خاصة ويبين الجهود التى بذلت لاصلاح الأزهر وإنشاء الجامعة .

وأهم الشخصيات التى تكلم عنها : سعد زغلول — مصطفى كامل — عبد العزيز جاويش — رشيد رضا — قاسم أمين — أحمد لطفى السيد — على يوسف — حفنى ناصف

مطبعة الأعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر